كأَنْ لا أَحَد...!

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة

- نصوص أدبية -

• **الكتاب:**

كأَنْ لا أَحَد...!

• **المؤلف:**

محمد آيت علو

• **عدد الصفحات:** 112 صفحة

• **مقاس:** 21,5×14,5 سنتم

• **الطبعة الأولى:** مراكش 1441 هـ/ 2019م

• **الكلمات المفاتيح:** الاجتماع الأخير – إلى حين تمطر – وجوه وأفواه – نظرة بنظرة.

• **الحقل المعرفي:** الآداب / / نصوص أدبية

• **ديوي:** 864

رقم الإيداع القانوني: 2019 MO4406

الرقم الدولي: 8 – 19 – 756 – 9920 – 978

حقوق الطبع والنشر © 2019- المغرب

الناشر:

آفاق

مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال،

483/4 الوحدة الرابعة، الداوديات - مراكش - المغرب

(212) 05 24 30 73 59

www.afaqedit.com

Email: afaqedit@gmail.com

تصميم الغلاف: مؤسسة آفاق – مراكش

الطباعة: المطبعة والوراقة الوطنية – مراكش – المغرب

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال.

محمد آيت علو

كأَنْ لا أَحَد...!

نصوص

المحتوى

عود على بدء: ويستمر المشروع 9
مقدمة 11
- المسافة (1) وجوه وأفواه 17
- المسافة (2) إلى حين تمطر 25
- المسافة (3) اصبع صغير 29
- المسافة (4) زنزانة لا تضيء 33
- المسافة (5) كذلك بعد اليوم 35
- المسافة (6) صور رجال جبال 41
- المسافة (7) حائل الاشتهاء 45
- المسافة (8) احتضار حياة 47
- المسافة (9) طيف ابتسامة 49
- المسافة (10) اختراق محموم 53
- المسافة (11) تردد 61
- المسافة (12) ذو الوجه النحاسي 63
- المسافة (13) الطفل الكهل 65
- المسافة (14) كوة في الغياب 69

- المسافة (15) آلة صماء وإنسان 75
- المسافة (16) نظرة بنظرة..... 77
- المسافة (17) الاجتماع الأخير..... 79
- المسافة (18) قناع ممثل 91
- المسافة (19) أيقونات الغفلة 95
- المسافة (20) أخيرا وحدك 105

صدر للمؤلف 111

عود على بدء: ويستمر المشروع...

لقد بدأ المشروع وكان تجربة ومغامرة جريئة بادي الأمر من خلال مؤلف "باب لقلب الريح" في طبعتيه (الطبعة الأولى: غشت 2000 والطبعة الثانية: أبريل 2011)، وقد نال استحسان الكثيرين، وشكل هاجسا لدى آخرين، وأنار درب البعض، فكان فاتحة الانشغال بالتجريب القصصي وركوب الممكن... على أن سر النجاح في شيء يأتي من الاقتناع به أولا... ويستمر المشروع...

✧✧✧

"... إن الانفلات في الأصل مسافة إبداعية..، احتراق من أجل تأسيس هوية الحداثة، ونشيد يعانق التحول والاستمرار، من خلال معانقة الإنسان بهدف الطموح إلى الانخراط في لحظة الاندماج الحقيقية، ما دام كل انفلات مشروعا إبداعيا لممارسة يومية، لا تنفصل عن المشروع المجتمعي ككل، بل تخلق بينه وبين هاجس تحوله... مسافات تتمفصل أبعادها داخل ذات تنتمي للمكان الذي ولدت فيه، وعانقت من خلاله هموم وأحزان الزمان، الذي يفعل فيه بشكل حضاري... لتصبح المسافات انفلاتا حداثيا للإبداع...".

ابن الأثير

عبده بن خالي

مقدمة

بين الانفلات، ومسافة الإبداع

...يرقص الجسد مترنحا بين جنبات الكرسي لا يستقر له قرار في الجلوس طبيعيا، كأن المقعد جمر من نار، النار تسري تدريجيا، متسربة حتى تصل إلى النخاع الشوكي... ثم تسير سيرتها الطبيعية، دون أدنى مقاومة إلى أن تصل إلى تلافيف الدماغ... إذ ذاك يبدأ التفكير / القلق وينطلق التساؤل، موجات كهربائية تلسع كل الجلد: - ما الذي يجري في الأعماق؟ - ما الذي يجري من حولنا؟... موغل في تعب الاستحالة وشقاء المعنى... مشرع بفوضى خالصة تقود نحو استدراج التفاصيل الصغيرة، واللغة إلى دمورها الأقصى... وحين نهب الحكاية تنظيم عثرتها، نكون قد انفلتنا مسافات...

هذا وإن النص الأدبي الرائع لا يقابل الاستهلاكي، وإن المسافة هنا ضرورية لسبر أغوار النص، كما أن الانفلات في الأصل مسافة إبداعية... توجُّهٌ جديدٌ يتميز بشيء مختلفٍ يضع في الحسبان القارئ، وذلك بإشراكه في العملية الإبداعية، المسافة هنا تعبر اهتماماً خاصا للقارئ، لأنها تنتقل به من مجرد مستهلك، إلى قارئٍ يُساهم بنشاطٍ كبيرٍ كَكاتبٍ آخرَ للنص أو العمل الأدبي، فالقارئُ يصبح في صراع مع

"الممتنع" و"الممتع" وفي إطار هذا الصراع يلعب القارئ أدواراً متعددة، فهو يقرأُ ويبحثُ عن قراءاتٍ جديدةٍ... وهنا تتحققُ إبداعيةُ النَّص وجماليته، كما أن الانفلات احتراقٌ من أجل تأسيسِ هُوية الحداثَة، وتجريبٌ صادرٌ عن شغبٍ وتمردٍ بشكل واعي، وتأملات للعالم والحياة والأشياء، وتداعيات ومسافات للذاكرة، وإبحار تخييلي، خبرة مصقولة، وسعي لتطوير الأساليب والآليات، وحرص على اكتشاف شيء جديد ينضح بالدهشة، والسؤال حول الذات، كمشروع جمالي تجريبي يتجاوز المألوف مع شيء من الجدة والمغامرة، ونشيد يعانق التحول والاستمرار، من خلال معانقة الإنسان بهدف الطموح إلى الانخراط في لحظة الاندماج الحقيقية، ما دام كل انفلات مشروعا إبداعيا لممارسة يومية، لا تنفصل عن المشروع المجتمعي ككل، بل تخلق بينه وبين هاجس تحوله، مسافات تتمفصل أبعادها داخل ذات تنتمي للمكان الذي ولدت فيه، وعانقت من خلاله هموم وأحزان الزمان الذي يفعل فيه بشكل حضاري، وما دامت المسافات من خلال تمفصل أبعادها تمتلك إمكانية التأثير في الإنسان، في التاريخ والواقع ارتباطا بامتلاك إمكانية الفعل، والتفعيل في اللحظة الراهنة...!

كما أن التجربة الإبداعية في المشروع اللافت للنظر لدى الكاتب محمد آيت علو تعتمد على التشظي فكل جزء يعتمد على الوحدة الكاملة للتاريخ والفكر، ومن خلال القراءة الواعية نرى توظيفا جديدا للصورة الفنية، ولعبارات خارجة عن المألوف، أما بالنسبة

للتيهات فهناك حضورا مكثفا لتيمة الوحدة، الموت، القبر، الشتات، البحث عن الذات، الغربة، الرحيل، الاغتراب، الخواء التيه، الجحود، النرجسية، واحتقار المغلوبين والضعفاء... مع شيء من البهجة، الابتسام، التوهج... من أجل كوة للفرح في حياة لم تعد حياة...، فضلا عن النهايات فهي تكاد تشكل تحولا في مسار الأحداث علاوة على عنصر المفاجأة فيها... تسلمنا إلى الرمزية والعمق...

يبقى في الأخير أن ننوه بالقيم النبيلة والحب الجميل الذي يتغياه المؤلف في "كأنْ لا أَحَد" حيث نشدان التغيير واستشرافه، وكم هو جميل أن نبدأ كتابة للحب المتسامي الصوفي إن شئنا، ولو علم الناس ما يفعله الحب في قلوبهم وحياتهم، لتغيرت أشياء كثيرة ولتجاوزوا ما يعانونه اليوم، بل ولتغلبوا على شقائهم المُضْنِي، ولتغيَّرَ وجهُ التاريخ، هذا المَبْني على إيقاعِ الحُروبِ والقَتْلِ والدَّمار...

هكذا نجدُ عَوالِمَ إنسانية مُدْهِشَة ومُبْهِرة، إذ نجد استكشافا أساسيا، ونقصد تصدي الكاتب للأمراض النفسية مثل الانتهازية والظهور والغرور، وحب الذات والحقد والتعالي والزهو الخادع... واسترجاع مناطق ظليلة من الماضي الجميل، المحجوب المنسي والمنكمش، وحشية الطفولة ووحشية الواقع.

تبقى مرحلة ظليلة غامضة ضمن هذه النصُوص المنفلتة، ولقد برع الكاتب محمد آيت علو لما اصطنع تلك المسافات بينها وبين القارئ، وهذا لا يَصْدِمُنا في شيء طالما أن هذه النصوص تتماهى مع حقيقة تكاد تترسَّخ كما هو الحال عند كافكا: "إنني أكتب خلاف ما أتكلم، وأتكلم

خلاف ما أفكر، وأفكر خلاف ما يجب أن أفكر، وهلم جرا إلى أعمق أعماقِ الغُموض" هكذا يتداخل هذا الانفلات في تلك المسافات لتصبح المسافات انفلاتا حَداثِيا للإبداع، ثم إن الأعمالَ الإبداعيةَ المُتَميِّزة لا يحدِّدُها بعدُ مقياسٌ ثابتٌ، فهذا لا يحدثُ حَتىَّ في الحُلم. كما أنَّ العالمَ يفلتُ مِنَّا باستمرار، والإبداعُ يحاولُ القَبْضَ على هذا الإفلات، فنحنُ حين نستعيدُ بالإبداعِ هذا العالمِ الهاربَ منا، لا نضعه في صورةٍ مُؤَطَّرةٍ ونحتفظُ به كذكرى لمسافات، واسترجاع لما قد فات...وتمتدُّ هذه المسافات في ذلك الانفلات، ليُصبحَ الانفلات مسافات بين التداخُل والامتداد، رؤية في اتجاه أن نكون أو لا نكون...!!

إنها الكلمة /الإبداع، والحكي عن الفرح الجامح بصخب وتوهج، عبير ينتشر عبر الأمكنة /الأزمنة من ضوء يُغَذي جُوع العتَمات المُنْدُوبة جِراحها فينا كالنَّزِيف، ومساءات الرَّغْبَة المبحُوحة في الانفلاتِ من ذاك العالمِ المسَيَّج بالريحِ والخواء، واحتراق الكلمات الناضجة فينا، فتبقى المسافةُ بيننا طُقوساً لانفلات لم نمارسه من قبل...!

فسلاما عليك أيها الواقف عند مدخل القلب، سلاما عليك أيها الجسدُ المنفَلِتُ فينا، حُلماً يُراوِدُ الذَّاتَ، ويسعى إلى تدميرِ المَأْلُوفِ، سلاما أيُّها القلبُ الرَّاقِصُ على جدار الحُزنِ الرَّاكِضِ في اتِّجاهِ النَّافذَة بحثاً عن كُوَّةِ فَرح، ملفوفٍ بمرايا عشتار وأناشيد لوركا... يدك الريح على كف الشمس وسط الظلام، ومشيئة الظل الذي هو ظلك في ظلين...، الأولُ يحَلِّقُ داخل متاهاتِ الوَجْدِ وأزقَّةِ المدينةِ، يُغازِلُ الجرائد سيلاً من رماد...، ويُغطِّي الثاني رموزه بحدائق تحَجَّرت

نبوءاتها في دمِه، و من أجل لا شيء، هو المرميُ هناك بين نوافذ الريح، بين النَّدىٰ والبَحْرِ، يبقىٰ الاشتهاءُ لديكَ في الانفلات إلىٰ شُرْفةٍ مُضيئَة، مُطَرَّزة بِلَيْلِ السُّمارِ الموسُومِ بالحَكْيِ والشَّغَبِ المُبْدِع...!

مِن هُنا تَبدأُ الحكاية/ الكتابة والكلمات...، وحبك المشنوقِ بحبالِ المَنْعِ والرَّدْعِ والصَّفْعِ، وحقيقة انفجاراتك الداخلية، وكل التناقضات التي تجعلُ العالمَ يضيقُ أمام عينيك، حتىٰ يُصبح في حَجْمِ عُلبَةِ الثِّقاب.

ابن الأثير

عبده بن خالي

لقد كان قومي مرة مثل
رمال الشواطئ...، والآن
أناديهم ولا تجيبني سوى
الرياح

عَجَباً أنْ يكونَ للمَسافَةِ كُلُّ هذَا السِّحْرِ والجَمالِ، فَهِي تَجْعَلُ حَظَّ الأَرْضِ مِنَ الشَّمْسِ الدِّفءَ والنُّورَ والحَياة... ذلكَ أنَّ الاقْتِرابَ احْتِراق، وَحتَّى معَ الإنسان، فإنَّ المسافَةَ تَجْعلُ العَلاقات بَيْنَهُمْ تَتوَطَّدُ وتَدُومُ أَكْثَر...
والحُب يصيرُ عشقاً وولهاً ويطُولُ بَلْ ويَزدانُ وَيُزْهِرُ...!

المسافة (1)

وجوه وأفواه

مرة أخرىٰ يستيقظ باكراً... تحت لهيب خيوط أشعة شمس الصيف الحارقة التي اخترقت غرفته عبر النافذة المشرعة، كان الضوء باهراً وعنيفا، أجهز علىٰ البقية الباقية من أرقهِ المحموم... لم ينم سوىٰ دقائق معدودة.. نهض بصعوبة، بعد تردد وحيرة.. حالة شبه الميت تثير إحساسا بالوحدة القاتلة والضياع والتشتت حيث القلق والخوف، نهر من القلق يفيض داخله، الصمت لا شيء غير الصمت، فما أشد تعاسة المرء حين لا يجد من يؤنسه، يحاول استعادة صورته... يحاول ترميمها من جديد في دواخله المنكسرة.. سماؤه وحدها ملبدة بالغيوم والضباب.. يحمل عبء قلبه وحده ويمضي، دون رغبة في الذهاب إلىٰ مكان بعينه ثم الرجوع إلىٰ البيت والجلوس والانتظار في عزلة وانطواء، كان يلزم الصمت دائما ويظل بمعزل عن الناس، ويبقىٰ دائما منزويا علىٰ نفسه دون أن يقوم بشيء، كما صار لا يلبث في مكان بعينه.. لم يكن هكذا من قبل.. لقد وقعت أشياء غريبة بعد وفاة آخر من أحبهم وتعلق بهم بقوة.. تلك جدته التي كانت بمنزلة أمه والتي عوَّضتهُ

حنان أمه كثيراً في غيابها وفقدها منذ أن كان صغيراً.. ثم يرحل أبوه وعمته وفيما بعد أخواله وخالته، فأعمامه وتستمر الفواجعُ وكأنه طويس هذا الزمان، ثم ها هو يفجع في أحب الناس إليه، صديقه ورفيق دربه والذي وضع حداً لحياته بانتحاره واستسلامه لحالة ضعف، فلكأنَّ من يحبهم يتساقطون اتباعا كأوراق الخريف أمامه... نظرته الآن للحياة صارت شبه معقدة، تخيف وتزعزع، وتبعث على الانطواء والانزواء وفقدان الثقة... أصبح متوتِّراً ويزداد صمتا أكثر فأكثر...

ومع كل الألم قد يبدو راضيا مكابراً، يدندنُ، ويبتسم وحده غباء أو عبثاً ليس يدري، وهو يُعِدُّ لنفسهِ الغامضةِ كأس شاي، وهو ينشغلُ بتحريك السكر في كأسه.. وهو يتناولُ فطوره على عجل.. ثم يغادر شقَّتهُ، عبر سلاليم العمارة.. كان جسده يسبح في أوهام يصطنعها الحرُّ الزائدُ، وتسيطر عليه هواجس محمومة عجز عن إسكاتها، تقودهُ خطاهُ الواهنةُ نحو البنايات الشاهقة الزجاجية الرابضة على الضفة الأخرى، في ذاك الشارع المزدحم رغم شدة الحر، ليقف أمام لافتة كبيرة وجد صعوبة في تهجيتها في بادئ الأمر، دفن ألمه كالمعتاد، وتوجه نحو مدخل المبنى الذي كان يَعُجُّ بالجلَبةِ حيث امتلأ بالناس والأصوات والروائح والوجوه الكالحة الشاحبة، التي تبعث على الغثيان، وقد صفعتهم الأمراض والظروف...، ألقى نظرة على لوحات بأسماء الأطباء واختصاصاتهم، ازدادت دقاتُ قلبه وهو يصعد بالمصعد إلى أعلى... يدخل قاعة الاستقبال ذات الواجهة الزجاجية،

تجلس خلفه شابة حسناء، رقيقة نحيفة ترفع وجهها وفي عينيها بريق، تفرَّسَت وجهه.. نظرت إليه وهي تعدل نظارتها مرحبة.. فيشعر على الفور أن الوجه مألوف لديه.. تستفهم بعينيها، تبتسم... كأنها تنتظر حواراً، يبتسم أخيراً لها... سرعان ما همست له: - ارتح هناك حتى يأتي دورك... ثم أخذت تدوِّنُ في مذكرة صغيرة، وشغلت نفسها بتقليب الأوراق، فلكأنها ملَّت من السحنات المريضة والتطلع إلى الوجوهِ نفسها... كانت القاعة مكيفة باردة، والمرايا تعكس بعنف صوراً لوجوه مبعثرة باهتة بالية، وأفواه متثائبة...

اِستوى أخيراً على كرسي فارغ، ثم أطلق شيئا من التنهد المكتوم المليء بالاستسلام، والإذعان مثل إناء من زجاج وقد انكسر، أحكم أزرار قميصه، وهو شارد الفكر في أشياء كثيرة لا تعني شيئا.. انتابته حالة الشك مرة أخرى في قواه العقلية.. فابتسم... ثم مضى بقية الوقت يعبث في الندبة المحفرة أسفل الذقن..

في صالة الانتظار لم ينتبه أنه كان من بين الرجال الخمسة إلا فيما بعد، حيث انشغل على حين غرة بشد فردة حذائه، يستفيق من الشرود ليرصد الساعة المعلقة على الجدار البنفسجي عقاربها تشير إلى اليأس وتبعث الملل... تثاءب، كانت عيناه ترصد صوت الألم... ثم سرعان ما أثاره ضجيجُ نسوةٍ وفتاتَين في مُقتبل العمر، والقلق باد على وجوههن التي كساها الوجوم، لربما أجهدهن طول الانتظار، وشردَ ذهنُهُنَّ ينتظرنَ بصبرٍ بالقربِ من باب غرفة الفحص... أخذ بتقليب

بعض المجلات المبثوتة على المنضدة الزجاجية وسط الصالة، ثم نزع إحداها كي يدفع عنه بعض الرتابة... لَمْ يدْرِ، لِمَ كان تركيزه على الأفواه والوجوه فقط، أفواه أفعوانية، فمٌ يزبد كثيراً حتى انتفخت أوداج وجهه، ثم يستمر في الصراخ والشتم... كان الوجه قذراً ومُنكَمِشاً، بلحية طالت وتبعثر شعرها، لم يكن راضياً عن نفسه، متضايقا جِداً...، ووجه آخر فوقه نظارة شمسية داكنة، تقعُ خلفها عينان زائغتان بفمٍ مُنفرج، يصدر منه صوت مبحوح بائس، ينظر إلى السيدة ذات الثوب الأنيق نظرة شفقةٍ... بعدها أدارَ وجْهَهُ نحو سيدة أخرى حائرة تُحِسُّ بأنها مراقبة، أما الرجلُ الثالِثُ فقد وقف هُنيهة يحملقُ مَلِيا وهو يحك جسده، فوجد نفسه معه وجهاً لوجه، ثم تمتمَ بكلمات غير مفهومة امتزج فيها شيء من الآياتِ بأدعيةٍ لم تكتمل... وكأن حواراً كان يتدفَّقُ بين سمعه ووجهه، ثم ساد الصمت... كان فمه يلوك علكا، وكانت نظراته تمسحُ أيضاً بهدوء كل ما يقع أمامه في الصالة، وإذا بوجهه يرتفع إلى أعلى ليفتعل متابعة الشَّاشَةِ المعلقة في أعلى الحائط، ولكن ماتزال سحناته المتضايقة تفضحُه، وكأنه هو الآخر غير راض، أما النسوة فكن يثرثرن، ويتناقلن آخر الأخبارِ ويُتابعْنَ رجلا نحيفاً في الخمسين من العمر، والذي جلس خلف باب الفحص مباشرة ينتظر دورهُ القادم، جلس على الأرض، كان يتصرف بشكل غريبٍ وفي عصبية غير محسوبة، يلعب بأطراف أصابعه يشابكها ثم يفتحها، ويرفع حاجبا للأعلى وكأنه يتنصت على شيء، ثم ينقر الباب نقرات خفيفة، ثم إذا به

يصرخ منزعجا: السلاسل السلاسل، البوليس...كما لو أنه تحت المكائد والمؤامرات وقد أثار فضول كل الحاضرين بهلوسته، ثم بدأ بهمهمةٍ حين نهرته إحدىٰ مساعدات الطبيب البدينات بالصالة، حملته بكلتا يديها وأجلسته علىٰ كرسي، وكان لا يزال متوتِّراً مشدوداً حاول مقاومتها ثم صرخ: أيتها الجاسوسة إياك عني...، بعدها ناولته قُرصاً للتهدئة، حاولت بكلامها اكتساب وُدِّهِ لكن لم تُفلِح... ولم يتمكن من الولوج لغرفة الفحص، وغادر رفقة ممرضين اثنين... ثم تقدم الرجل الآخر قليلا وكان مُقَطِّبَ الجبينِ، يُعاني بدانة مفرطة، يمسح العرقَ بكُمِّ يده اليُمنىٰ ولم تتح رؤية وجهه، يفتح فمهُ صامتاً فوقهُ شاربٌ كثيفٌ كمن يتثاءب، ثم إذا بابتسامة سمجةٍ ترتسمُ علىٰ زاوية فمه، قبل أن يفكر في الانقضاض علىٰ شيء، إلىٰ أن قام بجَرِّ كُرسِيٍّ بحدَّةٍ وتَحَدٍّ علىٰ بلاط الأرضيةِ واصطكاكه مع الباب بقوةٍ أحدث دويا صارخاً هَزَّ الجميع... كان هذا جنونيا، ثم قال بصوت جهوري: ماذا يفعل الطبيبُ كلَّ هذا الوقتِ...؟ شعر بضرورة إنهاضه وتهدءته بأي شكل.. لكن الأمر يحتاج إلىٰ قوة وجُهد، أمَّا هو فلن يجرؤ علىٰ فعل ذلك، لم يكن يعرفُ بالضَّبطِ ماذا يفعل، ثم تدخل أحد الممرضين والمرأة البدينة مرة أخرىٰ، وقد ارتسمت علىٰ محياها ابتسامة شيطانية، فحقنتهُ بإبرةٍ هدَّأَتْ من روعهِ، ثم نزع إلىٰ التخاذُلِ والتَّراخي مع الاذعانِ والامتثالِ والطَّاعَة، ومَدَّ لِسانَهُ بوجه منتصبٍ مطموسٍ خَجُولٍ، وبعد أن هدأ وعاد إلىٰ صوابه تركوهُ في النهاية... اِلْتَفَّ حَوْلَ

نفسهِ كما لو كانَ بهِ دُوار ولا يستطيع التوقُّفَ، وهو يَقْرِضُ أظافِرَهُ أو ينزعُ جِلدَهُ قطعةً قِطعة...، كان وَخْزُ الإبرةِ شديداً، أخذ يُهلوسُ بكلامٍ عن نفسه، وبلا انقطاع، يكررُ الأشياءَ نفسها يعجنها ويمططها بين الحين والآخر، كمن ينبشُ بأصابعه كي يُخَلِّصَ الشَّعْرةَ منها، حين جلسَ القُرفصاءَ فوقَ المقعد، بدأ يتلوَّىٰ مَاداً عُنُقهُ جاحظَ العينينِ، يشعرُ بشيءٍ من الانْزِعاجِ والقلقِ، كان خائفاً يكادُ يطيش صوابه، وكان يهتَزُّ كالثُّعبان أمام مِزمارٍ تُلاعِبُهُ أصابع طائشة فوق ثُقوبهِ الكثيرة المنتشرةِ علىٰ امتدادِه، أحس بحالته التي أصبحت درجة ما بين الخَدر والجُنون، صار مثل كائنٍ لاوجودَ له، ضاق من نفسه وتصرفاتهِ، ثم هدأَ قليلاً، وكان هدوءه مخيفاً ووديعا، مثل الهدوء الذي يسبق العاصفةَ...، ثم انطوىٰ علىٰ نفسهِ ينظرُ ولا يفعل شيء، كمن يتأمَّلُ بَواطِنَ انشغالاتِهِ اليوميةَ، ثم إذا بباب غرفة الفحص ينفرجُ لحظة، فتَدْخُلُ سيدة عجوز متحفزة بدت بشعةً شاحبةً تتجلىٰ نظرة القَهْرِ علىٰ وجهِهَا... أمَّا الفتاةُ الشقراءُ ذاتُ الخدودِ الوردية، فقد كان وجهها أملسا ومُسَطَّحاً، كان وَجْهُها مختلفاً، فقد بدَا في الوهلة الأولىٰ كأنَّ توتُّراً داخليا قد جعلها تقلب صفحات المجلة المصورة بقوةٍ وخِفَّةٍ في الآن نفسه، وهي قابعة قبالة الباب، لكن المسحوق أضفىٰ عليه بهاء جافاً مما جعله هذه المرة يظهر بنظرة لا حياةَ فيها، ولا يَنِمُّ عن أي تعبير، ثم انفرجت أساريرُ وجهها، وكأنها لا تفكر في شيء، تجلس وقورة هادءة لا تتحرك، لكنها تهلْوِسُ بأشياء غير مفهومة... هي تعلم أن

دورها سيأتي، هكذا بَدَتْ وجوههم وأفواههم بالنسبة له، وكأنهم يشربون من الكأسِ نفسِها، الهلوسة والنَّظراتُ الشَّاردَة، هنا تتجسد قبالته الحقيقة المضاءة، الحقيقة التي يبحثُ عنها دون قناعٍ أو زَيْفٍ، وقد قادهُ البحثُ إلى ضالَّتِهِ وأطاحَ بالشَّغَفِ.. الذي أخرجه من حياته الاعتيادية، ليعثُرَ على الحقيقة التي بحث عنها بنفسه... كأنه فهم السر، أدرك ما هو مُعقَّدٌ للآخرين، ذلك أنه من تمام العقل أن نعتقد أن هذا العالم مجنون، إنه يعرف الآن بأَنَّهُ مريض، كحقيقة تابثة مثلهُم تماماً لا يساوره شك في ذلك الآن، وبأنه البُومَة والشر، وبأن الكل مريض... وما عليهم سوى أخذ الموعد والانتظار، فالحرباء تنتظر... والدور سيأتي لامحالة، ودوره هو الآخر سيأتي، والفرصة أمامه لترويضها مليا، ستكون الجلساتُ والاختباراتُ النَّفسيةُ بعدها، ليفصح عن مَكْنُوناتِه، ومشاعر الاكتئاب، والرغبة والزهد في الحياة، وعن فواجعه التي لا تنتهي، وأسراره، وعن كل ما يحسن إخفاءه.. لكن هل سيتكلم...؟ وعن أي شيء سيتكلم؟ ماذا سيقول؟ من أين سيبدأ؟ ثم تعود أسئلته خائبة إلى صدره المتخشِّبِ تذروها الرياح والزوابعُ الهامسة، ثم تخرج في صفيرٍ وتنهيدٍ حزين، شرد... ازدادت رغبتهُ في تجنب ما قد يحصل!! صوت المفتاح في مزلاج الباب الآن، والبابُ حتماً سيغلق بقوةٍ لاحقاً...

مَزَّقَ أوراق الملف التي كان يحملها معه، وغاب مُتظاهراً بالذهاب إلى المرحاض، ثم هَرْوَلَ مُسرعاً كمن يطلب النجدة، وهو يَنْفُثُ هذيان أفكاره، أكمل سيره عبر الممر في أروقةِ الجُنون، والكلمات

مازالت ترنُّ في أدنه، فهو البُومَة والشَّر، كان المصعدُ مشغولاً، ثم تدحرَجَ عبر السلاليم، داهمهُ الإحساسُ بأنَّه مراقب، انزعجَ.. رفع عينيهِ ليجدَ شخصاً ما ينظرُ إليهِ، العينانِ النَّافِذتانِ تتربَّصانِ وتترَصَّدانِ، وكأنَّ وجهاً يريدُ أن يطعنَهُ، وفماً فاغراً يُصر على غَرْسِ أنيابه، يريدُ مَضْغَهُ وعجنهُ بلا رحمة،كانت ظلالُ الدكتور وكأنه يُشرفُ من أعلى السلاليم، يمُدُّ رأسه ووجهه نحو الأسفل، نظارته توشك على السقوطِ...صارت تخترقُهُ النَّظراتُ، تدور عيناه، الخطرُ قادمٌ من الخلفِ... تُراوده احتمالات حمقاء رعناء وتقفز أمامه، نسي في رمشة عين وجوه وأفواه الجميع، سوى وجه وفم الذي يريد أن يطعنه في ظهره دون سبب، التفتَ بتوتُّرٍ وخوفٍ ينبضان في عروقه، جفل بسرعة طائشة لم يكن ثمةَ أحد.. اتَّكَأَ بجسدهِ الهزيلِ على الإطار الحديديِّ للسلاليمِ... توقَّفَ فلم يجد إلا خياله يُطارده، تتراقصُ عيناهُ من جديدٍ، دَقَّ قلبه بسرعة، توقَّفَ نبضهُ وسقطَ... غداً سيأتي آخرون للصَّالَةِ ولا يرونَ ما يثير اهتمامهم..

المسافة (2)

إلى حين تمطر

كانت الفتاةُ الواقفةُ بمظلتها هناكَ تختلسُ النَّظرَ يمنة ويسرة، وتسترقُ السَّمع إلى بعض الجالسينَ على الكراسي الشبه فارغة، المبعثرة في الحافة أمام المقهى تنتظر أحداً غير آبهةٍ بالمارة...

المارة، لا أحد يعيرُ اهتماماً لأحد في هذا الشارع، غير العجوز الأعور الَّذي غرزَ عينهُ الوحيدةَ نحو طفلٍ بائسٍ ماسح للأحدية، يجلسُ بجوارِ متجرٍ عتيقٍ في الشَّارعِ الطَّويلِ...

في الشارع الطويل، اصطفَّتِ الأكشاكُ والأبناكُ وصاغةُ الذَّهبِ والفِضَّةِ وأضواء المحلاتِ والمتاجر والشُّجَيْراتِ القصيرة الَّتي لا تُثمر... وزعيقُ السيارات المسرعة وطابور من الدراجات، والمنبِّهات العصَبِيَّة المزْعِجَةُ والفوضى العارمةُ والصَّخَبُ والأضواءُ، والرَّصيفُ العَريضُ المحاطُ بشجيرات قصيرة وقد امتلأ بالناس والأحذية ذات الكعوب العالية تضربُ الرَّصيفَ بشدة، والأصواتُ والوجوهُ الكالحةُ شاحبةٌ حزينة، وقد صفعتها الظروف... وعلى الرغم من الغيومِ

الواعدة وزخات المطرِ الموحية بيوم مشتاةٍ، فقد كان الهواء فاسداً مشبعاً بالسُّمومِ وحزيناً مُتعبا...

متعب أنا أيضا في هذه الزحمة في متاهات تفكير مشتت، تائهٍ لا قرارَ له، دُنيايَ شوارع لا تنتهي، وليس لها حد، أمشي دون هدف، مثل الوُجوهِ المزدَحِمَةِ التي تمرُّ بخيالي الآن، حادَيْتُ نحو الواجهة الشبه المضاءة فوق الرصيف، لأحتمي من زخات المطر، قرأتُ إعلاناً عن فيلم سينمائي لوجوه ووجوه، ثم قطعتُ ذلك الشارع الطويلَ المزدحمَ الَّذي يُفضي إلى البحر...

في البحر، شممتُ رائحته، رائحة البَحْرِ والبَرِّ تتمازجانِ، عزمتُ على حرقِ القاربِ والمجذافِ كَمَنْ لا ينوِي العودةَ، أو الرجوع إلى اليابسة، أو كقرصان وحيدٍ مَبتُورِ السَّاقِ وبعينٍ وحيدةٍ يرقبُ، بلا أمل أو حيلةٍ أمامَ شِدَّةِ هَيجانِهِ.. يقفُ على رجلٍ يتأملُ المدَى... مثل اللَّوْحَةِ الأثريةِ هُناك في المقْهَى...

بالمقهى ثلاثةُ أصدقاءَ يجلسونَ، شاعر وحيدٌ بحزمة أوراق وكتاب، وفنانان تشكيليان توأمان يتأملان رسوماتهما، كلهم يتلذَّذون نكهة القُطران، وأمامهم نصوص ولوحات شاخت، تبحثُ عن يدٍ تنشلها من الصَّمْتِ القاتلِ والضَّياعِ في انتظار من لن يجيءَ... مثل النَّوافِذِ والشبابيك هُناك...

نوافذ وشبابيك سئمت الوقوف عندها حسناوات يلمحن طيور السنونو في الفضاء كالمعتاد... ويرتقبْنَ من لن يجيء عبر دُروبِ المدينة...

دروبُ المدينةِ تلتَفُّ حول المارَّةِ في هذا اليوم شبه المشتاة... الرذاذُ ينْتَشِرُ في اتجاهِ الشَّارعِ الطَّويلِ الَّذِي يُفضي إلى البحر... مثل المجاري والقاذورات والمياه المتعفِّنةِ الَّتي تَنْسَكِبُ ولا تتوقَّفُ إلا حين تجتمع هناك... حيث حرب البحر.. وحرب المياه...

لم أَعْهَدْ نفسي سائغاً كالماءِ في تلك الدروبِ الضيِّقةِ والزَّوايا العتيقَةِ والأزِقَّةِ الباردةِ والَّتي سقطَتْ فيها أجسادُ المارة اتباعا.. وأنا أجولُ ببَصري كسائحٍ مَلَّ الترحالَ في الدروبِ الضيقَةِ حتى قاع المدينة...

في قاع المدينة، لم تَكُنِ الفتاةُ الواقفةُ بمظلَّتِها تنتظرُ أحداً، ولم يَكُنِ الشَّارعُ الطَّويلُ يُفضي إلى البحرِ، ولا النَّوافذُ والشَّبابيكُ، ولا الحسناواتُ ولم يكنِ الصَّباحُ مشتاةً... ولم أكنْ أنا بِدَوْرِي أطوفُ بين دروب وشوارع أرجاء المدينة.. ولم يكنِ السُّنُونو تطيرُ كما اعتادت.. ولم يرها أَحَد..!!

كلُّ ما كانَ هو أنَّني كُنْتُ أكتشفُ نفسي في الشَّارعِ الطويلِ الَّذي أخذَ ينسَحِبُ من تحتِ قدمي، وأنَّ أيامي هذهِ شتاءٌ عجوزٌ.. إلى حينَ تمطِر...

المسافة (3)

اصبع صغير

اصبع صغير يضغطُ بقوة على جرس البابِ... ويسْتَمرُّ الرَّنينُ بشكلٍ مُتَقطِّعٍ يحبِسُ الأنفاسَ... كأن الطفل يَقْفِزُ قفزاتٍ ليصلَ إلى جرسِ هاتفِ المنزل أعلى البابِ ثُمَّ يتَخَلَّى قليلا...

تَفاجأَ، اعتلاهُ الذُّهولُ، تجمعت في عينيه آثارُ الاندهاشِ الجامحةِ وتكوَّرَتْ على جبهتِهِ حبَّاتُ العرقِ والمرايا تشَقَّقَتْ على وجهه، صوت الجرسِ يهُزُّ أحشاءَه، يمزِّقُ صدره، فهو لا ينتظرُ أحداً، وليس ثمَّةَ وقتٌ... ومرَّةً أخرى الجرسُ يرِنُّ ويرن.. بتقطُّعٍ كاد أن يصيح لستُ هُنا.. ثم قال بهمس: من سيأتي في هذه الساعة... كتَم غيظَهُ وقال لا أعرف من سيأتي...؟ نَطَّ سريعاً من على السريرِ، وصاغَ تقاسيم وَجْهٍ وأبدع لهُ ملامِحَ ليصلَ إلى قناعٍ آخرَ، وسار متسلِّلاً على أطرافِ أصابعِهِ نحو الباب.. دقاتُ القلبِ تتلاحقُ، الباب يغدو الآن وحشاً يلتهِمُ.. تلصَّصَ من خصاصِ البابِ، لَا أَحَد...!!

سبع دقائق.. عشر دقائق.. انتهى القلق..! ثم عاد أدراجَهُ، قادَتْهُ خُطاهُ المتثاقلةُ إلى غرفتِهِ من جديدٍ، ماذا يربطه بهذه الغرفة سوى

النوم العميق والوحدة القاتلة والوحشة التي لا تطاق...؟! تهاوىٰ علىٰ جانب السرير المُهْمَلِ والمحاطِ بفوضى عارمة.. الملابس والأغطية والجرائد المتناثرة هنا وهناك، والتي لا يقرأها إلا من بابِ الفُضُول والتَّسليَةِ..! يسترد بعض أنفاسه المتقطعة، تبعْثَرَ ليدفن ألمه، ثم غاب قليلا، تقلَّبَ في فراشه، ثم متمدِّداً بينما كان تفكيره يتسلل إلىٰ نفسه ويغشاه من الداخل، وكأنه يريد من نفسه أن يشفىٰ منه... كمن عاش وحيداً وسيموتُ وحيداً!! لا أَحَدَ من أولادهِ الثلاثة... تفاجؤه صورة أولاده حين كانوا صغاراً علىٰ الجدار المقابل للدولاب ذو المرايا قبالة السرير، عيناهُ تحدقان فيها، طفت فوق ركام أفكاره صورٌ عديدةٌ، زوجته المتوفاة ووجوه أطفاله وابتساماتِهم ووَداعَتِهم.. وقد كانُوا طيِّبين، تنهَّدَ عميقاً ثم أخذَ يحملِقُ في سَقْفِ الحُجْرَةِ، ينظرُ للاشيء، الصمتُ ولا شيء غير الصمت، تراه من سيكون..؟؟

ثم يصيرُ السَّقفُ شريطاً عميقاً سحيقاً لبحرٍ متلاطمِ الأمواجِ بين مد وجزر... لم يعهد نفسه من الَّذينَ ينتظرونَ، فهو علىٰ الدَّوامِ لم ينتظرْ أحداً، ولا من الَّذينَ يُرتِّبونَ لقاءً، ولا من الَّذينَ يقولون وداعا، فهو دوما رافعا شراعَهُ متأهِّباً ودوْماً علىٰ سفر، وهو دوما يطهر بالحبِّ ساعة اللقاءِ وساعةَ الوداعِ... يدرك بأنه مجرد عابر سبيل.. كل شيء يعجبه، ولا شيء يعجِبُه، وهو إذا ما ولَّى أَدْبَرَ ولم ولن يعقِّب، مثل نفحة نسيم عليل، أو ومضة بَرْقٍ خاطفٍ في غُدُوِّهِ ورواحِه، يطيرُ ويذهبُ مع الريح...!!

وحين كان يغيب ككل مرة، لا يترك غير كلماتٍ متعثِّرةٍ مُبعثرةٍ ضائعةٍ وهاربةٍ من الوقتِ مثلَه تماما، لا أفهمُ منها غير آهاتٍ متناثرةٍ مُنكَسرةٍ... عن احتياج القلب إلى طفل صغيرٍ كي ينسى أنه يَعيش، وعن العقُوق ونُكرانِ الجَميلِ في هذا الزَّمان المتعهر، حتى أولاده انسلُّوا من تحتِه في رمشةِ عين، الواحدُ تِلوَ الآخرِ، وهو الَّذي منَحَهُم كلَّ شيء جميلٍ بعد وفاةِ أمهم، ولم يكن أنانيا، كمن زرع الريحَ، وها هو يحصد العاصفة، لقد ضحى وأخلص في تربيتهم ولم يتزوج، ثم هم يرحلون عنه الآن اتباعا، ذهب الولد البكر إلى كندا وتزوج هناك، ثم لحقه الآخران إلى بلاد الغربة، رحلُوا منذ سنوات خلت، واتَّسَعَ الشَّرخُ، تزوجا ومكثا هناك أيضا، وتركوه وحيداً يشيخ بهذا البيت على شفا جرف هار، يسافر داخله مرات عديدة، ويتأمَّلُ أصابعَ رِجليهِ الَّتي لم تبرحْ مَكانها منذُ نُعومةِ أظافرها، وكأنَّ الطريقَ لم تكنْ إلاَّ العناء والهباء والعبث طول هذه الرحلة، صوت الساعة على الحائطِ يؤرِّقُهُ، ويبعثُ في نفسه الضَّجَرَ والكآبة، جُدران بيتهِ باردة كالصَّقيع، أركانه تنهشُ صدرَهُ كمخالبِ العُقابِ، يحملقُ في سَقْفِ الحُجرةِ بكثيرٍ من العنادِ والمكابرَةِ، مُنتهى الخذلانِ أن يكسركَ مَنْ قَضَيْتَ عُمْرَكَ كلَّه في تفانيهِم ومن أجلهِم، محاولاً ترميمَهُم...

فجأة، يلتصقُ أصبع على الجرسِ، لكن الرَّنينَ هذه المرة يستمر دُون هَوادَة، تهلَّلَتْ أساريرُ وجهِهِ، خفَقَ قلْبُهُ، ينظرُ ويبتَسِم...

لقَد قالُوا بأَنَّ مِنْ تمامِ العَقْلِ... أن تعْتَقِدَ أنَّ هَذا العالمَ مجنُونٌ! لكن أقولُ: إِنَّ في هذا العالم جُنوحٌ وأنَّ مِنْ تمامِ العقلِ أَنْ تُدْرِكَ بِأنَّ هذا العالمَ ليسَ عبثاً، ومِنَ الإنْصافِ لإنْسَانيتِنا أنَّ يُنَقِّحَ كُلٌّ مِنَّا زَواياهُ ويُنيرَ جَوانبَهُ المعْتِمَة....

المسافة (4)

زنزانة لا تضيء

هناك أنا آخر بداخله، أنا هذا يشده حتىٰ كأَنَّهُ لا يستطيعُ التنفس، يجرُّهُ إليه، يسحبه إلىٰ الداخلِ، إلىٰ أعماقه بقوة وبلا هوادة، صرخ بكل قواه، فردَّ عليه الصَّدىٰ القابعُ وراءه...

تغوص أناه، تسحب أظافرها التي كانت قد غرَسَتْها حول رقبتهِ حتىٰ كادت تزهق روحه... صارت تنظر إليه شزرىٰ من داخلِ عينيهِ الجاحظتين، ولم يكنْ ليرَىٰ وهو داخل في أعماقه...!! وبكثيرٍ من الريبةِ والهذَيان يتساءلُ: لمِ هذا البناء الشامخ بدون باب أو فتحة؟ وكيف وجدت هنا؟ كأَنَّه عالمٌ بلا منفذ، احتجز فيه وأحاطه من كل جانب، استرجع ما شهدته جدرانُ زِنزانَتِه من خربشات وخطوط ظل يرسمها دهراً طويلا، يُفْرِغُ فيها ضَمارَهُ الداخلي، وينفثُ فيها آهاتِه المحمومة، أما نوره الباهرُ الذي يمحو ويبدِّدُ الظَّلامَ فكان من الأعلىٰ...

حيطان أربعة ولا باب؟؟ قرر أخيراً تحطيمَها... وما أنِ انْتَهىٰ من الحائط الثالث.. كان الرابعُ يَتَصَدَّعُ، يتمزَّقُ الجدار، يميلُ ويتهاوَىٰ.. ليسْقُطَ هو كذلك في متاهةٍ سَحيقَةٍ محاصراً بجدران أخرىٰ

لا حَصْرَ لها، وكأنَّهُ جزءٌ منها، أصبح جزءاً من الجدار، فكيف يقوىٰ علىٰ الخروج من نفسه!!؟ يشعر بالحنق، دنا منها فلم يفطن بأن هناك شخص يطارد نفسه... ثم مال جهة ظِلٍّ لا حائطَ له...، ظل يعانقه في تلك الزاوية المنسيةِ الموحِشَةِ من نفسه... كما لو أنَّه انتهىٰ هنا...

كان الجدار المائلُ قد صيغت عليه لوحة لمتاهات بحجم الظل، موشح بلون أحمر قان، وأسود قاتم، مدعوم بطقوس البؤس... نظرَ إلىٰ الأعلىٰ كانت بشائرُ الضياء الشَّديدِ تُلَوِّحُ من الأفق، وعلىٰ الجدارِ لوحةٌ كُتِب عليها "جميعنا سجناء".

اهتدىٰ إلىٰ رُكْنٍ عكَسَ النُّورَ العُلْوِيَ، كانت هناك حفرة، قادته نحو القَاعِ، إلىٰ منطقة صخرية، لكن هناك عددٌ هائلٌ من الأشجارِ الكثيفةِ لا آخرَ لها، ولم يكنْ من مخرَجٍ هُناك يلوح في أي اتجاه! لذا تعمَّقَ وتتابع.. حتىٰ وجد دِهْلِيزاً فدخله، في مسلكٍ مُتَدَرِّجٍ نحو الأسفلِ، كان يحبُو علىٰ يديْهِ ورِجْلَيْهِ متتبِّعاً بصيصاً من النُّورِ والهواءِ، حتىٰ غلبه التَّعبُ، ثم نام لِلَحظَةٍ، بعد ساعات أو أيام مرت، سمع وَقْعَ دَقَّاتٍ مُنْتظِمةٍ تأتي من بعيدٍ...!!

في هذه الأثناء كانت نواياهُ تتقَوَّسُ إلىٰ الدَّاخِلِ حينَ سمِعَ صوتاً يصيحُ منْ أعماقِه: - أينَ كُنت تختفي؟ رَمِمْ داخلَكَ المهْجُور واخْرُج!!

المسافة (5)

كذلك بعد اليوم...

هل كان كذلك قبل اليوم...؟

كنت أقول لنفسي كيف له أن يتواجد بعيداً يوم وفاة أمه، وهو الَّذي نذر حياته لأجلها، ملازماً ومتفقِّداً لها على الدوام، بل إنه حتى الآن لم يتزوج، لعله يرد شيئا من جميل صنائعها...

فاجعته كانت كبيرة يوم ذاك، وقد تلبَّسَتهُ حالةٌ غريبةٌ من الكآبةِ والتَّشَتُّتِ والتِّيهِ، حيثُ اسودَّتِ الدنيا في عينيه، واعتَلَّ بدنه، ولكأنَّ الضياءَ احتجب، كان جارنا وقد تجاوز العِقد الخامِسَ من عمرهِ، لقيتُهُ وكان يحدث نفسه كالأبله، ويقهقهُ بهستيريا كالمعتوه، حييتهُ فابتسمَ، وتهتُ نحوَ البعيدِ حائراً، لا أدري لماذا تغيرت ملامحه وتصرفاته بهذا الشكل، رأيته ذلك اليوم، وهو يندفعُ نحو سلَّم المقهى الذي حرم منه زماناً، وفي الرُّكنِ ذاتِه، كأن على حافة القلب الكئيبِ رفرفتْ عصفورةُ الشَّوْقِ والأحلام من جديد... هي الوحيدةُ الَّتي سكنتْ وعلقت بفؤادِه من كُلِّ أولئك الَّذينَ عرفهم زماناً، كانت دوماً تواسيهِ وتعده بعودتها، وتؤمِّلُهُ برجوعها مهما طال الانتظار، وبأنها ستعود طال الدهر

أو قصر... لذلك ينتظرُ بمزيدٍ من الإصرارِ وبأحلامٍ ليس لها نهاية... هي حلمه الجميل حين تضيق الدُّنيا في عينيه، لذلك ستأتي، ستأتي لتبدِّدَ هذه الغيوم المتعبة كإشراقات شمسٍ في أيام الشِّتاءِ.. ثم تجلسُ أمامهُ في ركنٍ مَنْسِيٍّ، ويتهامسانِ بشغَفٍ، ويتقافزانِ من ضفَّةٍ لأخرىٰ، سيشكو لها ويبوح بانشراحٍ عن كل ما يختلجه من أشواقٍ وهُمومٍ، وبأسراره الدفِينَة، وكل ما سكَنَ من وجد وكمد... سيخبرها عن تفاصيل وفاة والده أثناء العمل وهو يصلح إحدىٰ الآلات المعطلة بساحة الشركة، لما أصيب بصعقة كهربائية، وحين نُقِل إلىٰ المستشفىٰ توفي في الحال... وعن رحلة أمه المضنية في المحاكمِ مع الشركة والتأمين دون أن تَظْفَرَ بشيء...

ستأتي.. وسيحكي لها بحسرةٍ عن أمِّهِ الَّتي أَفْنَتْ زهرةَ شبابها، كانت ناذلةً ثم خادمة في البيوت، تطبخ، تكنس، تلاعب الأطفال ولا تنام، تقوم بكل الأعباء مقابل الستر، وتأمينِ لُقمةِ العيشِ له ولأخواته الثلاث...وإلحاحها الشديد – رحمها الله – بأن يتخذ لنفسه امرأةً قبل وفاتها، كانت تريدُ أن ترىٰ أبناءَهُ قبل وفاتها، وهي لم تكن تفهم بأنه لا يريد أن تقاسمها أو تزعجها أي امرأة في حبه...

ستأتي.. وسيخبرها عن شماتة الأهل، الَّذين تبَخَّرُوا مرة واحدة، وكيف ضاعت ملامحهم وأسماءهم وصورهم دفعة واحدة، وكيف صار بلا جذور... وعن عمه الَّذِي ادَّعَىٰ مِلكيةَ بيتِهِم الصَّغير، وسينقل لها أخبار الجيران، وسيخبرها عن كلبه الصغير الذي سُرق مؤخراً...

ستأتي... وسيأخذ بيدها وينشدها أجمل قصيدٍ وشعرٍ فيها يُحَاورُ الأطيار والفراشات، ويغيب في عينيها...

ستأتي... وسيواصل حديثه عن حالة الالتباس التي اعترضته ذلك اليوم، وهو واجفُ القلبِ أمام الضَّابطِ الَّذي كان يُواصلُ المكالمة، وينظر إليه بازدراء، ويُعيد النَّظر بين الأوراقِ والمحضر، ثم يعيد النظر مرات عديدة... حتىٰ انْتَبَهَ إلىٰ صوت حذاءٍ يحتَكُّ بالأرضِ مؤدياً التَّحِيةَ قائلاً: - لقد وقع سوء فهم، ودون أن يفهم، أمرهُ بالانْصِرافِ، وما تراقَصَ في ذهنه آنذاك "أن الحَيَاةَ كلها سُجون والحريةُ مؤقتة..".

ستأتي... وسيخبرها كيف أنه مرَّ بمحنة وأزمةٍ صحية عنيفةٍ وسفره في روحه إلىٰ أن تجاوزها... ولائحة المنع التي أوردها الطبيب، فقد منع عنه التدخين، وشرب القهوة، وتجنب القلق والغضب.. وأن يرتاح ولم يوضِّح!! وكيف أحس بالدُّوارِ والارتعاشِ حتىٰ تراقصَتِ الأشياء حوله...

متىٰ ستأتي...؟ ارتشفَ قهوتَهُ البارِدَةَ، وجرعات من الماء وقد أحَسَّ بجفافِ حلقِه، ثم افتعل انشغاله بجريدة المقهىٰ، ليصير الانتظارُ مُرْفقاً باحتمالات شَتىَّ، والزوابع في جوفه ليس لها حد، تجول عيناه خِلْسةً في المقهىٰ كسائح، تتثاءب مَدَّ يدهُ إلىٰ الأمام ثم مرَّرَها علىٰ رقبَتِهِ، العياء يستبدُّ بهِ، لم يدرِ ما الَّذي أورده هَهُنا؟ تُسافِرُ به الآمالُ إلىٰ ما لا نهاية... يقطف ثمار ذاكرته، يحدثها قبل أن تأتي، يعاتبها عن تأخُّرِها،

يشيحُ بوجههِ عنها ويغضَبُ، ثم تبتسمُ له فينسَى، ماذا سيمنعها من المجيء؟ الوقت يهرب ويستيقظ سوء الحظ، طال انتظاره والشمس تزحفُ نحو المغيبِ وكأنها لن تأتي... هل تراها نسيَتْ؟ أم تراها أتَتْ قبلي ثم اختفتْ كومض خاطف؟؟ أخيراً يسقطُ في مهاوي الاحتمالات والتبريرات... يبتلعُ أحلامهُ فهو ينتظرها منذُ أكثرَ من عشرين عاما... ثم تغرقه الأحلام بعودتها، إحساس يدفعه إلى النُّهوضِ من مكانهِ، لكنه لا يجد، ستحضر أم لا!! ومتى كان الموتى يحضرون؟ سأل نفسه أخيراً كمن يريدُ أن يغادر..! وصل إلى الباب وهو مضرَّجٌ بالتِّيهِ، وقد ضاع منه كل شيء.. حتى أنه لم يتذَكَّرْ مسكنَهُ! أمضى حياتَهُ كلُّها في انتظارِ عودَتها.. ولم تَعُدْ.. أرادها أن تأتي ولم تظهر، ابتسم للحاضرين بالمقهى، ولم يَكُنْ هُنَاك أَحَدٌ، "لو أذهب إليها... فسأعتبر قبرها قبري... ثم عاد بروحه الجدْباء من حيث أتى، حتى بدَت ذاكرتُه تتبَخَّر، يحدِّثُ نفسَهُ، كمن ليس وراءَهُ إلا الوراءُ والفَراغُ...!!

بمن سأبدأ؟ فالطبيب الَّذي أصَرَّ على أن أرتاحَ! ينظر إلى الوجوه والملامح، الجميع يبحث عن الراحة وبإمكانه أن يرتاح!! الآن صار يفهمُ مثل الآخرينَ، فالفهم عند الكثيرين يأتي أخيراً!! فهل سيرتاح من الجيران؟ أو السجن؟ أو الطبيب؟ أو من انتظار التي لن تأتي...؟ أو من زيفه وذاته المتوهمة؟ ثم انشغل بتأمين حالة الأنس والنشوة المستبدة والتي عاشها قبل لحظات... لكنه سرعان ما عاد، توجه إلى الأريكة الجاثمة في صالة المقهى، قبل أن يرمي بجسده المثْقَلِ

بالهواجسِ، وليرتمي في حضن اللَّيل البَهِيمِ، طريقتُهُ في تدميرِ ما شيَّدَهُ من أحلامٍ بين أضلُعِهِ... رحَلَ الجميع، وبقيَ هُنا كشجرةٍ يتيمةٍ، تحت جُنحِ ليلٍ لا تُزهِرُ أغصانُه، فهل تراها تُغني على الليل أحلام جديدة...؟ يمُدُّ رِجْلَيهِ إلى الأمام، يُفرِكُ عينيه متثائباً، وإذا بِيَدٍ تُربِتُ على كتفِهِ في هذه الأثناء، تحرَّكَت في جوفه أصداء مدوية، قبل أن يصيرَا وجهاً لوجه!

يبصرهُ كما يريدُ، وجهٌ بنظراتٍ مُضيئةٍ، لا فرق بينه وبين وجههِ إلا الملامِحُ والسُّحُناتِ... ولم يُبصِرْ شيئاً... عادَ بروحهِ الجذْباءَ من حيثُ أتى... ثمَّ صارَ كَذلِكَ بَعْدَ اليَوم...!!

لقد قالُوا بأنَّ الذين تَنْفد أَحْلامُهم يموتُون، لكن بالنسبةِ لي وباليَقين التَّام، كل الَّذِين ماتُوا، قضَواْ نحبَهُم وفي أنفسِهم آمالٌ عريضةٌ، وسَيلٌ من الأماني والأحلام لم تنْقَضِ...!

المسافة (6)

صور رجال جبال

قَبْلَ أن ينزلَ سلَّم الطائرةِ الَّتي ستحُطُّ بمطار طَنْجَةَ بعد ساعاتٍ قليلةٍ، وقبل أن تُحاصِرهُ الكامراتُ والقَنواتُ التَّلفزِيَّةُ من كلِّ جانبٍ... انزَوىٰ وانكمشَ قليلا مَزْهُواً بنفسهِ في آخرِ مَقْعدٍ بالدَّرَجَةِ الأُولىٰ، وكأن لا أحدَ ينتبهُ لحضورهِ... ليكون كما يكونُ الآنَ في مقعده المنسِيِّ، وقد انعزلَ عن العالمِ، شيئاً فشيئاً راحَ ينزلِقُ في مقعدهِ الوثيرَ بعدما نزَعَ شَاله الأحمرَ المزركش بنجيمات خضراء، ودخلَ في حالةِ استرخاء، وها هو من غيابٍ إلىٰ غياب آخرَ، يُراقِبُ خلفَ الزُّجاجِ زُرقَةَ السَّماءِ الَّتي بدَتْ كحليب البحرِ والسَّحابِ الخفيفِ... كانت الطائرة تخترقُ الفضاء، حاول أن يَلْمَس بأطرافِ أصابعِه الزُّجاجَ، يرىٰ السَّماءَ في مُتَنَاوَلِ اليَدِ، شعر ببعض الدُّوارِ... فلم يكن يرتاح للسَّفرِ عبر الطائرة، لكم تمنىٰ أن يكونَ لديه جناحان ليطيرَ بهما مثلَ الطُّيورِ والنُّسور ويحلق عالياً بعيداً في الفضاء، وكم حلم بأَنَّهُ سيصيرُ طياراً يوماً ما، حينما كان صغيراً وهو يلعبُ بالطائرةِ الورقية... لكن لاشيء تحقَّقَ مِنْ ذَلِكَ، ولم تَعُدِ الأشياءُ كما تَصَوَّرهَا، الأصواتُ من خلفهِ

تغلبُ عَلَيْهَا ثرثرةُ مشارِقة، كانُوا يتكلَّمُونَ بصوتٍ عالٍ، ضحكاتهُم أزعجتْ كثيراً الركَّابَ الذين كانُوا يُتابِعونَ شريطاً وثائقياً على الشاشة، كان المشارقة يتحدَّثُونَ عن بلدهِ، وبدَا بأنهم لا يعرفونَ من أعلامِ وعلماءِ وكتابِ بَلَدِهِ إلا النزرَ القليل، ثم بدأت أصواتهُم تدخلُ مجالهُ في نفسه وذلك فيما يذكرون، أثارهُ ذلك بحمية وحنقٍ شديدين، أرخى أذنيه.. لعلَّهُ يَسْتوعِب، كان كُلَّما سمع اسمَ بلاده تلوكُه الألسُن، إلا وأحسَّ بارتعاشٍ وغِبطةٍ ويقظةٍ يقشعِرُّ لها بدنُه، كما يزدادُ انتباهه وحماسَتهُ وعِشْقهُ وحنينهُ، حاول أن يبتسمَ لكنَّهُ نسيَ كيف...!؟ نافورة الذكريات تتدفَّقُ، وصمت وجههُ، أحسَّ كما لو أنَّهُ عاشَ هذه اللَّحْظةَ في زمنٍ آخرَ، أفضَتْ به الحالةُ إلى نوعٍ من اليقظةِ رغم أنه لم يكُنْ نائماً، شرد مع كلامهم الَّذي وصلَ إلى أعماقهِ وهو يمرِّرُ يدهُ على شعرهِ الرَّمادِي المتدَلى حتى العُنقِ، بدَا أنَّ أحدهم من جِنْسِيةٍ لُبْنانية والآخرُ مصريا، فيما كان يبدو ثالثهُم خليجياً من خلال لهجتهم، تنهَّد، تثاءبَ، راودَهُ شعورٌ بأن يصيحَ في وجوهِهم... ثم دفنَ هواجِسَهُ، فكلُّهُم يذهبونَ ويرجِعُون، كُلهُم يعُودون للعُشِّ، والحكايات لا بدايةَ ولانهايةَ لها، كانت ذاكرتهُ في هذه الأثناء تركضُ نحوَ البعيدِ... تحتَ لهيبِ الشَّوقِ، لن يفهم أحدٌ ما عاناهُ وَكَمْ تَحَمَّلَ... فهو لا يجيدُ السِّباحةَ مع التيارِ ولا ضِدِّه، وحينَ كانت تجيء الريحُ كَكُلِّ مرةٍ، فهو لا يوصدُ البابَ في وجهِها، حتى وإن كان ثمةَ منفد أو مخرج، وحين يستطيعُ الخروجَ ولو إلى داخله، لا يكونُ كما يكونُ إن أغلقَ الباب ليستريح، أما

حين لا يكون للبابِ بابٌ فَإِنَّهُ كان يواجِه، أَجَلْ! كان يواجهُ بلباقةٍ وحِنْكَةٍ، على الرغمِ من أنَّ الريح تكون أشد من الريح في أحايينَ كثيرةٍ، لقد داعبَ العواصفَ والتيارات الهوائيةِ والطَّواحينَ جميعها وبشيءٍ من المرونَةِ، ولم تستطع أيُّ ريحٍ أن تجذِبَهُ في اتجاهِها، وظل متشبِّثاً مثلَ جَبلٍ لا تهزُّهُ رِيح... يُنيرُ الفَوانيسَ كي يبقى في دَاخِلِهِ إنسَان...

ثم سمع صوتاً يدعو المسافرينَ للانتباهِ بشد الأحزمةِ وأَخْذِ الحيطَةِ والحذرِ... عمِلَتْ يدهُ في سُرعةٍ ومهارَةٍ... أما الشابة الَّتي كانتْ بجانبهِ فقد بدَتْ مَقدِسِيةً في العقدِ الثالِثِ، إشرأَبتْ بجسمِها في إمعان نحو الخريطة وبخشوعٍ مُتناهٍ، كانت يدها معقوفة عليها، ثم ما فتأت أن حدَّقَتْ فيه مليا، كانت ملابسُها زاهيةً نظيفةً معطرة، تثبت نظراتها الناعسة الهادئة والتي لا تريمُ عنه، عيناها سحرٌ وصحاري ورُواء، أربكَتْهُ، طراوة خدها واتساعُ الرُّوح في عينيها، وابتسامتها التي كشفت عن تناسُقِ أسنانها وشِدَّةِ نصاعَةِ بياضها،... كانت رائعة، ثم دنت بوجهها الصَّبُوحِ، هامسَةً في أذنه بلثغة أَخَّادَة، عن جمال جبال الأطلسِ، وهذا الشُّموخ... وعن كَرَمِ وعفويةِ رجال هذه الرُّبوعِ، ومحبَّتهم لفلسطينَ وأهلِها، وتعلُّقِهم ببيتِ المقدسِ الشَّريف، و... و... ولم يكنْ هوَ ينبِس ببنتِ شفَة، كان ينظرُ إليها وَيَتَطَلَّعُ بإذعانٍ ونبضاتُ قلبِهِ تتراقَصُ... واكتَفى بتحريكِ رأسهِ للأعلى ثم للأسْفَلِ، ثم غامتْ عيناه برُؤاها وهو يلُفُّ الشالَ الأحمرَ حول عُنقهِ من جديدٍ، ليقبعَ بداخله تتابعُ الحدثِ، وقبل أن يَشْعُرَ بنشوةٍ أُخْرَى أثقل، وهُوَ يستعِدُّ

لمغادرَةِ الطائرة حيثُ تم الإعلانُ قبلَ قليلٍ من خلال مُكَبِّرِ الصَّوْتِ الَّذي أعلمَ الرُّكابَ بالوصولِ وبفَكِّ أَحْزِمَةِ المقاعدِ لقرب هُبوطِ الطائرة...، وهو في طريقه إلى سُلَّم الطائرة للخروجِ، لم يَكُنْ من السهلِ عليه مواجهةُ مُستَقبليهِ الَّذينَ احْتَشدُوا في طوابيرَ مُتَراصَّةٍ رهيبةٍ مَهيبةٍ، كان رجالُ الأمنِ ينتَشِرُونَ، والمصَوِّرُونَ يأخُذونَ أماكِنَهُم، وكاميراتُ الصَّحافيينَ تتخذُ وَضْعَها لرصدِ الحدثِ، كانت الأصواتُ تتَناهَى إلى سمعهِ، غادرَ مكانَهُ ورحلَ بعينيهِ، لم يكنْ منَ السَّهلِ عليهِ مُواجَهَةُ مُسْتَقبليهِ، يتقَدَّمهُم ابنُ بطوطة، وابن المعلم الطنجي ومالك بن المرحل، ولسان الدين بن الخطيب، وعبد الله كنون، والمكّي النَّاصِري، والمخْتَار السُّوسي ومحمد بن إبراهيم المراكشي وعلال الفاسي وعبد الخالق الطريس والحلوي وشكري... حفاوتهم لم تكُنْ عادية، ولم يتمالَكْ نفسَهُ، كادَ أن يجْهَشَ بالبكاءِ.. كان المشارقةُ والمقدِسِيةُ يتطلَّعُونَ إليهِ، وظلالٌ أُخْرَى تشرئِبُّ وتَمُدُّ أعناقها، رأى أسوداً تعانقُه، وترَحِّبُ بهِ بالتمرِ والحليبِ، وبالزُّهورِ والوُرُودِ، خارج المطارِ بِركٌ صغيرةٌ من المياهِ، كانت بقايا الأمطار الَّتي هطلَتْ منذُ يَومينِ بشائر خيرٍ ورحمةٍ، وها هو يتشبَّثُ بأصحابهِ الطَّنْجي والتِّطوَاني والبَيْضَاوي والرِّباطِي والمُرَّاكُشي والسُّوسِي والصحراوي... ثم صحبهم إلى موكبِ السيارات مخلِّفاً وراءَهُ خيالَهُ الجامحَ والجُمُوع، وقد تجمَّعَت في عينيهِ يومَ ذاكَ صُورُ رجالٍ قَضَواْ نحبَهُم... وكانَ يَنْظُرُ وَينْتَظِر...

المسافة (7)

حائل الاشتهاء

تسَمَّرتْ مشدُوهةً إلى الشَّاشةِ الكبيرةِ وهي تُتابعُ بانبهارٍ مثلَ زوجِهَا برنامجاً يتضمَّنُ وصلاتٍ إشهاريةٍ في إنقاصِ الوزنِ... تضمنت الوصلاتُ وصفات غذائية وحصص رياضية وخلطات وأدوية وعقاقير... فقد استهوَتها التَّغييراتُ الَّتي طرأَتْ على بعضِ الممثلاتِ والنُّجوم السينمائية.. والنَّتائِجُ المبهِرةُ غير المتوقَّعَة في إنقاصِ الوزنِ... وأَذْعَنَت لكُلِّ الوصَفاتِ...

فهي حينَ تزحَفُ هُنا أو هُناكَ، تجدُ صعوبةً في التنَفُّسِ ولم تَعُدْ تستطيعُ صعُودَ السَّلاليمِ، كما أنَّ جِسْمَها بدأَ في التَّوَرُّمِ والانتفاخِ، والأغربُ من ذلك أنها كُلَّما تجرَّعتِ الأدويةَ ازدادَتْ سمنَتُها، كانت إحدى بناتُ أختها والَّتي تدرسُ في كليةِ الطب قد نصحتها أنه بالإمكان إجراءُ عمليةٍ جراحيةٍ تجميليةٍ تحدُّ من هذهِ السمنَةِ...، لكنها لم تحبِّذِ الفكرةَ، فحادثُ جارتها الغالية لا يبرحُ مخيلتها، حيثُ توفيتْ أثناءَ عملية تقليصِ معِدتها في الحال...،

ولذلك لم تعد تُبالي لمجاملات الأقاربِ ولا الأباعدِ، ولا لكلامِ أحد، كلٌّ من يحيطُ بها حينَ ينظرُونَ إلى منظَرِها، يقولُون بأنها بدينة مثلَ البقرة، والجاراتُ يُشِرنَ إليها بالأصابعِ... ويَهْمِسنَ بكلامٍ ونُعُوتٍ شَتىٰ، وهي لَمْ تَعُدْ تتحرَّج من مظهرها، فقد أدارَتْ ظهرَها لِكُلِّ ما يُقَال بل لِكُلِّ شيء، ولَمْ يَعُدْ يَهُمُّهَا أَحَدٌ في لحظةٍ وبدُونِ ندَم...لكن، في اليوم الموالي اعتلتِ الميزانَ وهي تلهثُ من الإعياءِ، جزعَتْ وزادَتْ دهشَتُها.. إذ وجدَتِ المؤَشِّرَ يرتَفِعُ، وهي تتَصَبَّبُ عرقاً... حالة من المزاجِ المتقَلِّبِ أحياناً... بعد عودتها.. اشرأَبَّتْ بثقلِ جسمِها كلَّهُ أمام الشَّاشّةِ من جديدٍ بخشوعٍ مُتَناهٍ... أحسَّتْ ببَعْضِ الإجهادِ، وهي تمُدُّ يدَها إلى المائدةِ الَّتي كانت تزدانُ بصُنوفِ وألوانِ الطعامِ... انحنَت رأسَها وانكبَّتْ على آنيةِ الطعام أمامَها، يدها تذهَبُ وتجيءُ بين فمِها والآنيةِ مثلَ الآلةِ، تأكلُ بنهمٍ غريبٍ وقد نشَطَ ازدِرادُها، كَمَا لَوْ أَنَّهَا تذكرُ أنهُ قبلَ أن تموتَ لابُدَّ أن تعيشَ... واستغربَتْ كيفَ أنَّ في هذَا العالمِ أشخاصٌ يهربُونَ من الطَّعامِ خوفاً من السُّمنَةِ، وآخَرُونَ يركضُونَ وراءَهُ منَ الجُوعِ...

المسافة (8)

احتضار حياة...!

اكتملَ قُرصُ القمرِ فوقَ عشة الفراخِ في الخارج وأرسل شعاعاً، غسلَ وجهها الصَّغيرَ، دارت بيديها حولها تبحثُ عن عروسَتِها، تحسَّسَت معالمها وابتسمَتْ عندما استقَرَّت أصبعَها النحيلةَ في الثُّقْبِ مكانَ العينِ، حملتها وقامَتْ في هدوءٍ تعبُرُ الأجسادَ النَّائِمةَ في أرضِ الغُرفَةِ الضيِّقَةِ... ما الشيء الَّذِي يجمعهُم في هذا المكانِ؟

وحدهُ السَّقفُ الَّذي يُظَلِّلهُم هنا، وربما مكثَ أحدهم في الغرفةِ لأنه محمومٌ، أو تظل واحدة منهم بطنُها منتفخٌ تتلَوَّىٰ عدةَ ليالٍ تنتظرُ أن تلفظَ ساكناً جديداً يصرخُ والكُلُّ نِيام... لن يتفَقَّدَها أَحَدٌ، الصغارُ كثيرونَ والتُّرابُ الذي طمسَ معالِمَ الوجوهِ يجعلُ اختلافَ طُولِ القامةِ وحدهُ السَّبيل لمعرفةِ الولدِ من البِنْتِ، تعرفُ أنَّ اسمَها حياة وتلعنُ الحياةَ... وسطَ المقبرَةِ، يرقدُ أيضاً هيْكَلُ العربَةِ الخربَة، الَّذي يتَلاشَىٰ تدريجياً بين أكوامِ القُمامَةِ، سمعتْ أصواتاً صاخبةً تأتي من داخلِ الهيكَلِ، فاعتَلَتْ فراغَ حديدِ النَّافِذَةِ، وجلَسَتْ تهزُّ ساقيها إلىٰ الدَّاخِلِ، لم يرفَعْ أَحَدٌ عينَيْهِ إليها، مسَحَتْ بيدِها علىٰ وَجْهِ العَروسَةِ، وزرَعَتْ

أُصْبعَها مكانَ ثُقب عينيها... وبدأتْ تتأمَّلُها بفرحٍ وأمل، تحضنُها بقُوَّةٍ وحَنان، تمشطُ شَعْرَها بأظافِرِها المتَّسِخَة، تلبسُها جورَباً كانتْ تدَّخِرهُ، تضحك ملء عينيها، مليئة بالسَّعادةِ... العروسةُ الَّتي كانت قد التقطَتْها خلالَ جولتِها في المقُبرَةِ، كانت مُلقاةً على ظهْرِها، تنظرُ إليها بعينٍ واحِدَةٍ، لكن الضَّجيجَ واللَّغَطَ يترافَعُ، فقَفَزَتْ منَ الشُّباكِ لتجدَ نفسَها في الطَّريقِ...، احتضَنَتْ عروسَتَها وتسلَّلَتْ بجوارِ الحائطِ حتى لا يراها الحارسُ لكنها فوجئت بجسَدِه الضَّخْمِ وراءَها، سألها عن وِجْهَتِها، فَفَرَّتْ هارِبةً، فلاحقَها بِسَيْلٍ مِنَ اللَّعَناتِ وإلى كُلِّ الَّذينَ أنجبُوا أَمْثَالها، عَبرتْ محطةَ القِطارِ، هُناكَ الأرضُ المهْجُورَةُ الَّتي تَزْحَفُ إليها الكِلابُ الضالَّةُ، وتمْكُثُ رابضةً بلا طعامٍ في هُدوءٍ حتى تجهلَ أو يأتيها المَوْتُ...

المسافة (9)

طيف ابتسامة...!

الساحةُ جرداءَ محفرة، والتَّضاريسُ منبسطة والهضاب والتِّلالُ تغيرت بشكلٍ مفاجئٍ فأصبحت حادة ومحدودبة، وأكوامٌ من الأتربةِ تمترسَتْ في كلِّ مكانٍ، كروابي فوقها طفيليات وأشواك وبقايا قُمامة ظهرَت علىٰ حينِ غرَّةٍ كحاجزٍ رماديٍّ خَلْفَ الأبنيةِ المشَكِّلَةِ لأحزمةٍ حمراءَ تبدُو مترامياةَ الأطرافِ هُناكَ...

وسطَ السَّاحةِ قُبالةَ السُّوقِ جلَس "لْعَرْبي" القُرفُصاءَ واضعاً حصيرةً بلاستيكية وعليها بضعةُ ملاعقَ وفُرشاة أسنانٍ وساعة يدوية بالية، قناديل، وعملات ورقية قديمة، ونقود وميداليات وأطباق فضية، وقفلا بدون مفاتيح، وأنابيب مكسرة، وقطع نقدية قديمة، وبعضُ العقيقِ، وصور ألبومات، وطنجرة سوداء، وتماثيل برونزية وفضية، وأخرىٰ متوسطة الحجمِ مذَهَّبَةَ اللَّونِ، وأقراص مدمجة باهتة، ولوحات، ودمية صلعاء شاحبة بلا أعين، وبعض المجلات وصور إعلانات فقدت ألوانها من أثَرِ الغُبارِ وحرارةِ الشَّمسِ....

وأفواجٌ منَ النَّاس يمرُّونَ عليه جيئةً وذهاباً، يُبَحلقونَ وأحياناً يسألون، يُشاكِسونَ ويماكِسون ولا يَشْتَرون، وهو الآخرُ غير مُبالٍ ولا مُكْتَرِثٍ لما يجري حولَه، دائمُ الانْشِغال بتَرتيبِ وإعادةِ ترتيبِ كُلِّ هذه الأشياءَ غارقاً في السُّهُومِ...!

هو الَّذي لم يَقْبِض عليه قابضٌ يوماً، لكن حينَ وقعَ شَرَبوهُ وها هو ضِمْنَ المجاري...، غيرَ أنَّهُ مازال قادراً على المزيدِ مِنَ المكابَرة...! فجأةً وقفَ رجلٌ يشبهُه إلى حدٍّ مَا، كانَ فارعَ الطُّول، أسمرَ اللَّونِ صُحبةَ طفلٍ صغيرٍ، سألَ الطِّفلُ والدَهُ: ماذا يبيعُ يا أبي؟! حَنْحَن الأبُ واضعاً سبَّابتَهُ على نظَّارَتهِ مُبتَسماً ومُتَجاهِلاً السؤالَ، جاذِباً ابنَهُ بعيداً...!

أحسَّ "الْعَرْبي" بوخزٍ كهربائِيٍّ يَسْرِي في جَسدِه، دورةً دورةً... ساخناً حارقاً... ثم بارداً مثلَ الثَّلْجِ، لم يَعُدْ قادراً على الحركَةِ والوُقوفِ طويلاً، كلُّهُ وَهَنٌ، وضعَ جِلباباً على الأرضِ ليَضْطَجِعَ، ظهرهُ المنخوُر لا يطيق البلاط...، جالساً ولماماً كانَ يقفُ، وسيقفُ لاحقاً لترتيبِ وإعادةِ ترتيبِ كُلِّ هذهِ الأشياء مراتٍ عديدةٍ...! مُتَّكئاً الآنَ، يُتابعُ بعينَيْهِ المنْظَرَ الطَّبيعِي المقفِر هناكَ...!

الساحةُ مدخلٌ كبيرٌ، هضبة عظيمة تتخللُها سراديبٌ وكهوفٌ وتلالٌ ترتفعُ بشكلٍ عنيدٍ على مشارفِ المدينةِ الوحشِ... الَّتي سرقَتْ منْهُ أَزْهَى أيامِ شبابِهِ، أحياناً يأتي البوليس هنا للبَحْثِ عنِ الأشياءِ المسرُوقَةِ، فإذا ما حَيَّاه أَحَدٌ تجاهَلَهُ، وقد تنفرِجُ شفَتاهُ عَنْ طَيْفِ ابتسامةٍ بلهاءَ بلا رَنِين، مُنزَوِياً كعادَتِهِ في هذا الرُّكْنِ القَصِيِّ عَن أطرافِ المدينةِ،

مُقَطِّبَ الجبينِ لا يُكَلِّمُ أَحَداً مِنْ هؤلاءِ الباعَةِ المتجَوِّلينَ المنبَتِّينَ حولَهُ، الكُلُّ يعرفُه، لكنَّه يتجاهَلُهُم وكأنَّه ليسَ مِنْ هذا البَلد!

في هذهِ المدينةِ كانت الصَّيحاتُ تجلجلُ تهزُّ المدينةَ هزًّا، وكان هو الوحشُ، اسمه يُدوِّي، كان نجماً رياضياً كبيراً يضيءُ المدينةَ بأسرها ويأسرُ بسحرهِ الجميعَ... الناسُ الَّذين يمرُّونَ الآن عليهِ جيئةً وذهاباً، همُ الَّذينَ كانُوا يقفُونَ على المدرجات أو خارجَ الملعبِ يصفِّقُون لهُ، ويهلِّلُون إكباراً لموهبتهِ الفَذة، وها هو ينزوي بعدَ أن ترك الوظيفةَ وباعَ ما يملك، لم يعد يشغله شيء، لا حركةَ السَّائرينَ ولا همسات البائعين، صارَ أسيرَ عالمٍ صامتٍ لا حُدودَ له، هو الَّذي لم يقبض عليه قابض، لكن حين وقعَ، شربُوه، وها هو في النِّهايةِ ضِمنَ المجاري...!

من قال: "اللِّي تْعَز يَدَّلْ، واللِّي سْمَانْ يَهْزَل، واللِّي طْلَعْ يَنْزَلْ"...

ثم ها هو يقفُ من جديدٍ مُقطِّبَ الجبينِ، واقفاً يحيا، واقفاً يموتُ، غيرَ مُكتَرِثٍ، دائم الانشغال بترتيبِ وإعادَةِ ترتيبِ كُلِّ هذه الأشياء، غارقاً في السُّهُومِ...!

المسافة (10)

اختراق محموم...!

ليسَ على أحدٍ أن يعرفَ... لكنَّ صار الكُلُّ يعرفُ... وانتشرَ الخبرُ كالنَّارِ في الهشيمِ... وها هو العنكبوتُ الأزرقُ ينضَمُّ إلى العيونِ النَّاقِمةِ في اتحادٍ كُلِيٍّ لا يرحَم...

لم يكن منبوداً قبلَ هذا اليوم، وكأنَّ لا أحَدَ يريدُ أن يرتبطَ بهِ، أَنْكَروهُ ليتحَمَّلَ وِزْرَهُ وَحْدَهُ، تأثَّرَ كثيراً، أَخِيراً صار لهُ قلبٌ يحِسُّ، يُدرِكُ بأنهُمْ لا يستحِقُّونَ خَدماتهِ، وليعيشَ عُزْلَتَهُ وَحْدهُ... ثم يحملُ حقائبَ وجَعِهِ إذعاناً للنِّسيانِ...!

لقد أصبحَ الآنَ مُراقبا ومُحاطاً من كلِّ جانبٍ، في مكانِ عملهِ ومكتبهِ، وفي الشَّارِعِ... وحتى حين ينزوي في إحدى غُرفِ بيتهِ، صار حذراً يَقِظاً مُنْضَبِطاً مُحْتاطاً، لا يصخبُ ولا يضجرُ، ولا يُعَلِّقُ على شَيءٍ...، لا يتنهَّدُ ولا يسعلُ ولا يصرخُ... كما لو عزلُوهُ في حجر صِحيٍّ خوفاً من انتشارِ مَرَضهِ المُعْدِي، وقد دُجِّنَ في إذعانٍ حتى لا يتهاوَى، ليحموه من ذاتِه، وبعد قليلٍ قد يهبطُ

الغرابُ لينعقَ في مَجَالِهِ سائلاً عَنْ سرِّ وصِحَّةِ هذه الحياة، فلم يعُد للحياةِ معنىً بالنِّسْبَةِ لهُ، إن كانت هُناكَ حَياة، وليشهد على عصرٍ ماتَ... لكن، أكان لزاماً أن تُقطَّعَ الأشجارُ؟ وأن تسْقُطَ الظِّلالُ؟ أكان معقولاً أن تُتَعقَّبَ العَوراتُ وتُرضَى الأهواءُ..؟ أمَا كان الأحْرَى استِحْضارُ الرقيب الجبار الَّذي يعلمُ السرَّ وأخفى... ومن أعماقه كان يريدُ أن يَصرُخَ ويصيحَ" يا سارقي الربيع مِنْ هالاتِ نجمهِ... يا سارِقي الأحْلَام من وسائدِ الأطفال... كم فضحتم...! وكم عرَّيتُم! يا عَدِيمي الحَياء...".

الآنَ في كلِّ مكانٍ يحلُّ فيه، يحسُّ بأن الأجهزة تتعقبه، تقتفي أثرَهُ، ترصدهُ تحاول كشفَ غطائه، يحتاط الآنَ من كل انزلاقٍ، ليبحثَ عن طرقٍ أخرى لالتواءاتهِ ومتاهاتهِ ونزواتهِ...

ومع ذلك فإدمانه لن يستسلمَ بهذه البساطة، ولن يصيرَ لقمةً سائغةً بأيِّ شكلٍ، "لن أستسلمَ أبداً، أجل! لن أستسلمَ... لن أكونَ كمجدافٍ كسيرٍ، فالصدرُ مفتوحٌ، سأجمعُ شتاتي، وأحَرِّرُ نفسي...! ولن أرضَ باليسيرِ...! وحتى في أقصى الحالات عليَّ وعلَى أَعْدائي..." هكذَا كان يحدِّثُ نفسَهُ ولوقتٍ طويلٍ، فما هي إلا طريقة للمداهَنةِ في انتظارِ الانقضاضِ والإجهازِ بمنقارهِ ومخالبهِ على الأَخْضَرِ واليابسِ، فهو الَّذي يؤلِّفُ القواعدَ، وهو الذي يجدُ المنافذَ والحلولَ ليَخْرقَها... هو الكاسرُ الذي يرى عن

بعدٍ ما لا يُرىٰ، ويخترقُ كلَّ مجالٍ، ومحالٌ أن يتوقَّفَ أو يزيغَ ويستسلمَ بهذه السهولة وَالبَسَاطةِ، وهو لا يقوىٰ علىٰ كَبْحِ جماحِ نزواتِهِ... فهو يجيدُ قواعد اللَّعب، لذلك بداخلهِ خزَّانٌ يتوقَّدُ من الجمرِ، وفي نفسهِ بِضعَةُ أفكارٍ محمومةٍ، يحرصُ علىٰ تنفيذها في الحالِ كلَّما سنحتِ الفُرْصَة، وعلىٰ حافَّةِ مزاجهِ المتقلِّبِ سيتَتبَّعُ عوراتِ الآخرينَ ليرضي نزواته، وسيبتزهم الواحدَ تلوَ الآخرِ، ولن يدَّخِرَ جُهْداً لإشباعِ غروره وأمراضهِ العَفِنَةِ... وها هو يبحثُ في كلِّ مكانٍ، ولن يتوانىٰ أو يدَّخِرَ جُهْداً في تحقيقِ هدفهِ المَنْشُودِ...

يقرأُ الآنَ عن الآلات والأجهزةِ القديمة والحديثةِ بخصوصِ مستحدثات المراقبة والتجسُّسِ مدعومة بصور:

"... الكامراتُ المثبوتةُ علىٰ القُبَّعاتِ أو ربطاتِ العُنُقِ بحجم زر قميصٍ تثبت علىٰ الصدرِ، وإذا أرادَ استخدامها فما عليه إلا أن يأخُذَ نفساً عميقاً، ومن حركةِ الصَّدْرِ يتم التقاط الصورةِ المطلوبةِ...، وهكذا إذا ما أريد التقاط صور أخرىٰ دون أن يلحظ أحد شيئا غير عَادِي...، وكامرات أخرىٰ علىٰ شكل ولاعات وعلب السجائر، وأقلام وخواتيم وساعات وعدسات البصر...، العيونُ والكامراتُ والهواتفُ الذكِيةُ والتسجيلاتُ الرَّقمِيةُ والراداراتُ والشَّبكاتُ العنكبوتيةُ... تعقبٌ وترقبٌ وتلصُّصٌ، تتبعٌ، البياناتُ والمعلوماتُ والتقريراتُ، اختراقٌ هنا وهُناك..!

وترصُّدٌ وفُضولٌ... لِيَصِيرَ الفضولُ الشَّيءَ الوحيدَ الَّذي يزدادُ جوعاً كلما أطعمتَه مكانَ النَّار... ترصدٌ هائلٌ لكلِّ الحركاتِ والسَّكناتِ، الأقمارُ الاصطناعيةُ، والربوهات والآلاتُ، والشَّرائِحُ والكامراتُ الدقيقةُ المبثوتة في كل مكانٍ، وما له عيونٌ دقيقةٌ، وما لا عينَ لهُ..." وهو يتابعُ هذه الهَالَة مِنَ الصورِ والإعلاناتِ الَّتي يسيلُ لها اللعاب، تذكرَ حكايةَ الجبنِ الفاخرِ والفأرِ الجائعِ... وتمنى أن يحصلَ على كلِّ هذه الأجهزةِ حتى يحقِّقَ مُرادَه العفن، لكنَّهُ! هو المراقَب لم يكن من بُدٌّ سوى السباحَةَ مع التيارِ، والانتظارِ حتى تخمدَ العاصِفةُ... تربُّص هائلٌ، فأين الحرمَةُ والكرامةُ والخصوصيةُ الإنسانِيَةُ...!

أزرارٌ ولوحاتُ تحكُّمٍ، فضولٌ محمومٌ عن بُعْدٍ لايلين، وإصرارٌ مرغوبٌ لايريم، عيونُ كامراتٍ كحبَّاتِ العَدسِ وكالذَّرات...

هكذا صار داخله كخارجهِ، وسره كعلنه، متنبِّهاً حريصاً، يشعر كأنه ذبابة وقعَتْ في شَركِ أهدابِ عنكبوتٍ لا يرحم، وسيتسلَّى به طولَ الوقتِ... وسيذعَنُ إذعانا... تخطر ببالهِ أشياء كثيرة من توجُّسِه وهلعهِ، هذه الشبكة الكهربائية هي الأصلُ، أيتم تعطيل كل شيء..! ثقته بنفسِهِ تزدادُ شيئا فشيئاً، قبل أن يستعِدَّ للانقضاضِ والإجْهَازِ عَليهِم... طريقة في رد الاعتبارِ لذاتهِ... وما هي إلا غفوة حتى رنَّ جرسُ الهاتِف هزَّهُ بقُوة، يريدُ

تَرتيبَ لِقاء معهُ، رفع السَّماعَة ودونَ مُقدِّماتٍ سمعَ مَنْ يأمرهُ بالقول: يجب أن أحدثك في قضيةٍ هامَّة جدا، ولذلكَ عليك أن تأتي إليَّ هذا المساء، فالقضيةُ تتصلُ بكَ رأساً، وتمسُّ حياتَكَ، ولكنني لا أستطيع أن أحدثك في هذا كلِّه الآنَ، لابُدَّ أنْ تجيءَ إليَّ على السَّاعةِ الثامنةِ تماماً سأكونُ بمقهى "المنار" سأكونُ هُنَاك...!!

قالَ مُتَردِّداً: هذا المساء؟ ولكنني مُرتَبِطٌ بموعد مع أحَدِ أفرادِ العائلةِ، وكنتُ أُريدُ أن أذهبَ إلى...

– عليك بالذَّهابِ الآنَ إلى حيثُ تريد، عَلَى أَنْ لا تنسَ المَوعِدَ هذا المساء، لا تستطيع أن تتخيَّلَ الأخبارَ الَّتي أحملُها لك...

– ولكن أرجوك، أرجوك، ما هو هذا الخبر الهام؟ إنك تثيرُ فيَّ فضولاً عظيماً، أعترِفُ لك بذلك...!

– ثم قال: ستَجِيء؟

– سَأجِيء..

– لا تنسَ الموعدَ في الساعةِ الثَّامِنة...

وضع السَّمَّاعَة، قال في نفسهِ غريبٌ هذا الَّذي يحصُلُ الآنَ...!

ثم كان اللقاءُ بعد تردٍ وترقبٍ كبير، وحيرةٍ قاتلةٍ، كان شابا وسيماً لطيفاً جدا، وقد سعى للمصالحةِ، لكن بشيءٍ من

انعدامِ الثِّقَةِ والإخفاقِ، قال له: اسمع سأدبر كلَّ شيءٍ... ما عليك إلا أن تنتظِرَ...!! فصرخَ مدعوراً، كل هذا الوَقت، أين، أين؟؟

ثم أردفَ: أنتَ ذكي، لكن سأكلِّمُك بلا لَفٍّ ولا دَوَران، إنني بصددِ أن أجدَ تسويةً وحلاً يرْضِي الجميعَ، ما يحصلُ الآنَ لا يَصُبُّ في مصلَحَةِ أَحَد، ويجِب أن يتوقَّفَ هذا العَبث، عبثا نُحاول إخفاء الحقيقة، لكننا في المركبِ ذاتهِ...، ثم أَضَاف، اِنتبه يا خالدُ قد يضيعُ الجميعُ في رَمْشَةِ عينٍ... ارتعشَ كأَنَّهُ أطلقَ رصاصةً من مُسدَّسٍ....

ولما عادَ إلى بيتِهِ وقد سَادَ الظَّلام، ولما هَمَّ بالدُّخُول، اصطدَمَ بالأريكَة، وبدَا لهُ شبحُ رجلٍ ضَخْمٍ يجلِسُ عليها، وثَبَ عليه من أمامِ البابِ وجهٌ غَريبٌ، وقبلَ أن ينقشِعَ الضَّوْءُ الباهتُ، وقد جنَّ جُنُونُه، صرخَ بأعلى صوتهِ مَن هُناك...؟ فأجابه صوتٌ فَخْمٌ "أنا"، أنا الَّذي انتظرتُكَ منذُ مدَّةٍ..، ثم قالَ بصوتٍ مَهْمُوسٍ: لقد سلكتَ سُلوكاً مخزياً دنيئاً، أجرمت في حَقِّنا جميعاً...! هذا ما يُسَهِّلُ علينا الانتهاءُ إلى شيءٍ في ظروفٍ أُخرى...، عليكَ أن تُسافِر لأبعد نقطةٍ تسْتَطِيع، سَنَترصَّدُكَ باستِمْرَار، لم يفهم خالد شيئاً سِوَى أَنَّهُ في خَطَرٍ شَديدٍ... وأنَّ عليهِ أن يفلت بجِلْدِه قبْلَ فواتِ الأوانِ، لقَدْ خُيِّلَ إليه أنَّ الصُّلْحَ أمرٌ سهلٌ وخاصةً معَ مِثْلِ هؤلاء...، في هذهِ الأثناء خطرَ ببالهِ خَواطِرَ

كثيرة فهذا تهديدٌ خطيرُ، كانت الرسالةُ واضحةً... عدَا هَذا أشياءُ كثيرةٌ يجب أن تحدُثَ، ولكنّ الوقْتَ لايتَّسِعُ لذلكَ الآنَ، أجل! أنا شِرِّيرٌ، لكن هناكَ مَنْ هو أشَدُّ وأَعْتَى...! هدأَ قليلاً، وأطْرَقَ يفكِّرُ وكان يُرتِّبُ في ذهنهِ شيئاً، سيعرِفون قيمتي يوماً، مُتَسائلاً لِمَ كل هذا الشَّر والترقُب؟؟ هل أنا المُذْنِبُ الوحيدُ؟ حرتُ الآن...! أنا مستعِدٌّ لكُلِّ شيء، ماذا يمكن أَنْ يقع، ماذا عَساهُمْ أَنْ يَصْنَعُوا، يتخِذُ قراراً بأن يتوارَىٰ عنِ الأنظارِ وسيدافِع - لاحقاً - عن نفسهِ بكُلِّ ما أُوتيَ من قوَّةٍ، فهو لا يعدمُ حيلاً، والأدلَّةُ سيجمعُها من مصادِرِها، وما هي إلاَّ دقائق حَتىٰ هَرعَ إلىٰ السلم ليهبطَ بسُرعَةٍ، حذراً، زائغَ النَّظراتِ يميناً ويساراً في الشَّارع العريضِ... ينوي الهُروبَ والتَّوارِي عنِ الأنظارِ لبعضِ الوَقْتِ، دون أَنْ يلتَفِتَ إلىٰ الوَرَاءِ... وقد بَذَلَ جُهْداً مِنْ أجلِ أنْ يُسَيطِرَ علىٰ نَفْسِه، فجأَةً وفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، سمِعَ صَوْتَ فتاةٍ من ورائِهِ تُناديهِ... ثم نَظرَ نَظْرَةً خائِفَة....!!

المسافة (11)

تردد ...!

كمَنْ يتَهَيَّأ للمغادَرةِ، لكنَّهُ سرعان ما يعودُ ليخلَعَ معطفه وقبَّعَتهُ ودثارَهُ، ويعلق كل ذلك على المشْجَبِ، ثم يدلفُ إلى الحجرةِ، ويغلق الباب الداخلي وراءَهُ، ولفترةٍ طويلةٍ ظَلَّ يرتِّبُ احتمالاتهِ، حتى بدَا لهُ القرارُ في النِّهايةِ، بعد الذُّعْرِ المجنونِ الذي تراكمَ على وجههِ المُتَقعِ، ووضَحَ بصورةٍ أشد من ارتعادِ شفتيهِ، وحالة التَّقَوْقُعِ المخيفِ التي طَحنَتْ رأسَهُ، وجَعلَتْهُ يغوصُ بين كتفيهِ، ضاغطاً الجزْءَ الأكبرَ من عنقهِ تحتَ ياقةِ القميصِ، تاركاً معطفَهُ الثَّقيلَ، والآن يهبطُ السلاليمَ العريضةَ في خِفَّةِ طائرٍ رافعاً المكانَ إلى هيأتهِ، فجأةً يفتحُ البابَ، ويُطِلُّ برأسهِ ثم يقفلُهُ بسُرعَةٍ، وقبل أن يفتَحَ البابَ ثانيةً توقَّفَ بُرْهَةً كمن فَطِنَ إلى أنَّ الشارِعَ يَعُومُ في سَرابٍ وَوَهْمٍ دائِمٍ، وباشتباكاتِ الضَّغِينَةِ والشُّرورِ والمآسِي....

يَفتَحُ البابَ أخيراً كأَنَّهُ نسي شَيئاً لكنَّهُ لا يُطل... ويقفلُ البابَ، لم يكنْ يَعْلَم بأنَّ شيئاً قدِ انْصَرَفَ مِنْ أَمامِ بابِهِ مرَّ كالسَّهْمِ يحاوِلُ جاهِداً اخْتِلاسَ النَّظَراتِ...!

المسافة (12)

ذو الوجه النحاسي..!

وَجْهٌ نحاسَيٌّ، أجِدُني مراراً أعصر مخي لأتذكر أينَ واجَهَني، أو واجَهْته، فهذه الأسنانُ المتآكِلَةُ، وهذا الأنفُ العريضُ، وهذا الفَمُ المُنْفَرِجُ باستمرارٍ، وهذانِ الحاجبانِ المقَوَّسانِ مثل القارَبِ، وهاتانِ العينانِ الحزينتانِ ليستَا غريبتانِ عَني، كانَ يرتمي على كؤوسِ الشَّايِ والقَهْوةِ والمشروباتِ الَّتي يجِدُها فوقَ الموائدِ المتَراصَّةِ عبر بوَّاباتِ المقاهي، بعد مَزْجِ بعضها ببعض، ثم ينظرُ إلى الجالسينَ بابتسامٍ، ثم يقومُ بإلقاءِ الدُّروسِ في الفلسفةِ والأدبِ والتَّاريخِ... نصوصٌ ونصوصٌ من المقدمةِ، والغربال وشعر لشعراءَ رومانسيين... ثم يرتشفُ من الكأسِ المَمْزُوجِ وهو يلعنُ البشرَ... الناسُ ينظرونَ إليهِ في امتعاضٍ، وهو غارقٌ في الضَّحِكِ والابتسامِ....

فجأةً انْقَضَّ عليْهِ النادِلُ المشدوهُ، وهو مستَمِرٌّ بحركاتِ يدِهِ وفَمِهِ التي لم تتوقَّفْ، وهو يُلَقِّنُ الدُّروسَ بالعربيةِ والفرنسيةِ وكلمات بالانجليزيةِ أيضاً... يتكلَّمُ باستمرارٍ، يكرِّرُ ويُعِيدُ الصياغاتِ، ويُقَلِّبُها ثم يُعِيدُها ويقلِّبُها مرَّةً أُخْرَى، على وَجْهٍ ثم على الوَجْهِ الآخَرِ، يَعْجِنُها

ثم يعْجِنُها كورةً قويةً دامغةً يَقْذِفُها في وَجْهِ المتَطَفِّلينَ المتعطِّشينَ الَّذينَ لا يَشْبَعُونَ مِنْ أَكْلِ لُـحُومِ البَشَرِ، وَمِنَ التَّشَفِّي والسُّخريَةِ من الآخرينَ كلَّما سنَحَتِ الفُرصَةُ، ثم هو يُلَوِّحُ بحركاتٍ تليقُ بمقامِ الأستاذ، كانَ يشرَحُ ثمَّ يشدُّ بيدِهِ علَى لحيتِهِ ثم يبتَسِمُ رافعاً تارةَ أُصْبُعَه وطوراً يدهُ إلى الأَعْلى، ثم يُقَوِّسُ إحدى عَينَيْهِ كأَنَّهُ خَلُصَ إلى الفكرةِ السَّديدَةِ، ثم يعودُ إلى حالتهِ الأُولى فيُزَمجرُ ويَفيضُ غَيْظاً وشَتْماً عَلَى أَعْدَاءَ وَهميينَ، ولعناتُهُ تجلجلُ المكانَ، النَّادِلُ يَنْهَرُهُ بحدَّةٍ.. لكن ذو الوجهِ الفحمي النُّحَاسِي يصيرُ مثلَ طَيْرِ الصَّاعِقَةِ، يُرَفْرِفُ مثلَ شَبَحٍ أَعْمَى، المخَالِبُ كأظافرِ النَّسْرِ، ثم ما لبثَ أَنْ بَدَّلَ هَيأَتَهُ فصارَ ساعِداهُ مثلَ جَناحَي الطَّائرِ الكاسِرِ مَكْسُوَّتينِ بالرِّيشِ الكَثيفِ، ثم بدأَ يُعَرِّيهِ من ملابسهِ، أخذَ يخنُقُهُ بمخالبِهِ الحادَّةِ المكْسُوَّةِ بالصُّوفِ أيضاً، والشَّطَطُ يَنبَعِثُ مِنْ مَساماتِ وَجْهِهِ الحانقِ، والشَّرَرُ يتطايَرُ من عينيهِ الدَّامِيَتَيْنِ، وفَمُهُ يلْتَهِبُ بالنَّارِ الحارِقَةِ الَّتي انبثَقَتْ مِنْ أَعْماقِهِ ينفُثُها عليهِ كالتِّنِّينِ، حتى خمدَتْ أَنفاسُه، ثم أمسكَهُ وقادَهُ، يسلكُ الطَّريقَ الَّذي لا عَوْدَةَ لسالكهِ إلى دارِ الظُّلمَةِ، إلى المكان الَّذي لا يَرجِعُ من دَخَلَهُ، والَّذي حُرِمَ ساكنوهُ من النُّورِ، حيثُ الحجَرُ والطِّينُ، والتُّرابُ طَعامُهُمْ وهُمْ كالطُّيُورِ مَكْسُوُّونَ بأجنحةٍ مِنَ الرِّيشِ، ويعيشُونَ في ظلامٍ دامسٍ لا يَرَوْنَ نُورَا...

وَالنَّاسُ هنا وهُناكَ يجلِسُونَ في طوابيرَ مُتَراصَّةٍ على جنباتِ المقاهِي والمحطَّاتِ ينتَظِرُونَ عودةَ ذو الوَجْهِ النُّحاسي، فَهَلْ تُراهُ يَعودُ؟!

المسافة (13)

الطفل الكهل...!

الطِّفلُ الصَّغيرُ كُنتُهُ ذاتَ يومٍ، أعرفُه جيِّداً، وكيفَ لَا....؟!

لدَيَّ بعضُ ملامِحَ، وبِضْعُ صُورٍ مِنْ حياتِهِ القصيرةِ المتراقِصَةِ كأفكارٍ مُضيئَةٍ... أنا الَّذي لن أُفرِّطَ في الطِّفلِ البريءِ الَّذي كُنتُه وَيَسْكُنُنِي، ثم ها أنذَا جَمْرَةٌ ساخنةٌ تشرعُ في الانطفاءِ مِنْ قَسوَةِ بردِ وقُبْحِ هذا العالمِ، أشعرُ بشفَقَةٍ يشوبها المزاحُ وأنا أداعِبُ ابني الصَّغيرَ أضمُّهُ وأعانِقُهُ، أشمهُ، أُقَبِّلُهُ وهو يلاكِمُني، فأتظاهرُ بالسُّقوطِ يمنةً ويسرةً، وكالببَّغاءِ كان يردِّدُ كل ما يسمعهُ من كلماتٍ، يتلعثَمُ ويُتَعْتِعُ حتىٰ تنسابَ الكلماتُ، وتتمَطَّطُ دلالاتٍ جديدةٍ دافئةٍ، ومن فرطِ الحبِّ حين كنتُ أُطَوِّقهُ بدراعي كوحشٍ ضخمٍ ضار يريد الانقضاضَ علىٰ فريستهِ، إذا بهِ يقِفُ، ثم ينظرُ ثم يعدُو صائحاً النَّجْ... دااااااة.. النَّجْدَة...، وكأَنَّهُ يحاكِي ما يراهُ من رُسومٍ مُتَحرِّكةٍ علىٰ الشَّاشَة، كانت تستبِدُّ بهِ نَشوَةٌ عارمةٌ فتحلُّ السَّكينَةُ علىٰ كلِّ الأرجاءِ محلَّ الجلبَةِ والحَرَكةِ عندما يرىٰ تلكَ الرُّسوم، حركاتُ القِطِّ المتوَثِّبِ القاهرِ، ومَقالِبُ الفأرِ العنيدِ، وحينما كنتُ أريدُ إغلاقَ شاشةِ التلفازِ أو الانتقال إلىٰ معرفةِ الأخبارِ وما

يجري في قريتنا الأرضية، يأخذُ جهازَ التَّحكُّمِ وينتقلُ بينَ الصور فتغدُو مُسرِعَةً كالبرقِ الخاطفِ ثم يرمي الجهازَ ويعدُو وسطَ الدَّارِ إلى المطبخِ، ثم يَتْرُكُني وَحْدِي مع بردِ وقُبحِ العالمِ، حيثُ الحربُ والدَّمارُ والظُّلْمُ والصُّراخُ والأنينُ والغازاتُ والشُّهداءُ والجَرْحَى والصورُ المفْجِعَةُ والحوادثُ ووحشيةُ المجازِرِ وازدحامُ الجثثِ وموتُ الأبرياءِ والزلازل والفيضانات والاحتيال والانتخابات والتفاهات... فلا أجدُ أيَّ شيءٍ جديدٍ، أو ما يبعثُ على الاطمئنانِ... فالأخبارُ هي الأخبارُ، والقنواتُ بلا عددٍ، فبعدما كانت تنقل الأخبار، فها هي الآن تشاركُ فيها بل تصنعها وتضحكُ على من يعتقد فيها، والوجوهُ هي الوجوه، وجوهٌ أَدْمَنتُها حتى خبرتها، وصرتُ أعرِفُها وتَعْرِفُني، ولا أدري لِم صرتُ كلَّما نظرتُ إليها إلا وأشعرُ بالتَّقزُّزِ والحنَقِ والدُّوارِ والغثيانِ والضَّجَرِ...، أغمضتُ عيني وتركتُ قلبي يمسحُ المسافةَ الفاصلةَ بيني وبينَ ما يجري في ساحات قريتنا الحياتية... وليسَ سوى هُنيهةٍ حتى سمعتُ جلبةَ طِفلِي وهو يعدُو سريعاً يمتشِقُ حصانَهُ الخشَبي ويمرحُ وسطَ الدَّارِ، وفي يديهِ قطعةُ خُبزٍ وبعضُ البطاطِسِ المقليةِ، فيما كنتُ أمتشِقُ أحلامي المتَشابِكَة، أناديهِ فلا يجيبُ، وفجأةً يقفُ ببابِ الغُرْفَةِ قُربَ الجهازِ، محرِّكاً رِجْلَيْهِ كما لو أنَّه يرقصُ، يَقْضُم خُبزَهُ، يرى ويسمعُ ثم يردِّدُ الكلماتِ كالببَّغاءِ...

ظهرَ النائبُ الَّذي كان يتحدَّثُ عن التربيةِ والقِيَمِ، كان طفلي يكتفي بالنَّظرِ ويهَمْهِمُ بكلماتٍ، وكأنَّه يردِدُ وراءهُ كلَّ ما كان يسقُطُ من

كلماتٍ ركيكةٍ مُكَرَّرَةٍ ممطوطةٍ ومبتذَلَة، ثم يُعيدُ الكلمات نفسها، ويلوِّكُها بينَ شَدْقَيهِ، كأنَّه مُلزَمٌ بالتّكرارِ لجَعْلِ الآخرينَ يصغونَ إليهِ باستمرارٍ وحتىٰ يحبه النَّاس، وكأنَّه لايدْرِي بأنَّ حتىٰ التكرار للحقيقةِ محضُ كذِبٍ، وعود ووعود... فإلىٰ متىٰ سنثقُ بمن يعدنا وَلاَيَفِي، وقد جَرَّبْناهُ..؟ فالكلماتُ بهذا الجهازِ فأرٌ مخادعٌ مثلَ الزِّئبَقِ، ماءٌ ينفلتُ منْ بينِ الأصابعِ، فأشرب عطشي الَّذي لم يُرو، وكي أنسىٰ ما ينتظرُ طفلي وكل الأطفالِ من المجهولِ ومن وجَعٍ، أتناسىٰ وأرسمُ ابتسامةً عريضةً من الآمالِ من جديدٍ فلربما تولد الألوانُ والكلماتُ الحلوةُ وأنا أعرفُ أنَّ مآلها العمق السَّخيفُ، وسيصيبني الدُّوارُ مِنْ جَديدٍ... وقبل أن أغلقَ الشَّاشة، كان ذلك آخر صوتٍ نقَلَتْهُ القَناةُ قَبْلَ أن ينقطِعَ البَثُّ المباشرُ لنَقْلِ وقائعِ جلسةِ البرلمان، ثم ها أنَذَا أُحاوِلُ أنْ أُسْعِدَ طفلي فافاجؤهُ بِقَوْلِي: غداً سنذهبُ إلىٰ البحرِ، ثم يَرُدُّ ابني: – متىٰ سنذهب؟

– غداً يا بني سنذهبُ..

– سنذهبُ إلىٰ ساحةِ الألعابِ!

– لا! إلىٰ البحرِ للسِّباحةِ..

– (يردد) متىٰ سنذهبُ...؟ – غداً إن شاء الله..

– الآن يا أبي.. ثم يلاكِمُني ويجري مستنجداً وأتَظاهَرُ بالسُّقوطِ وكأَنَّهُ أصابني بالضَّربَةِ القاضية...

– غداً بمجردِ ما سيضعُ رجلهُ علىٰ رمالِ الشَّاطِئِ سَيَعْدُو من غيرِ هَوادَةٍ نحْوَ البحْرِ، وسيقول: ضُمَّني أيُّها البحرُ، سينفُدُ إليهِ دونَ

تفكيرٍ، فَطِفلِي يعشقُ الماءَ كثيراً وسأعدُو خلفَهُ، وسيصرخُ بأعلىٰ صوتهِ طالباً النجدة خوفا من الغرقِ، وسأُلاحقُه وأمسكهُ أضُمُّه وأعانقه، أشمُّهُ، أقبِّلهُ وهو يُلاكِمُني، فأتظاهَر بالسُّقوطِ يمنةً ويُسْرَةً، وكالببَّغاءِ سيردِّدُ كل ما يسمعهُ من كلماتٍ... وسيلاكمني وأنا أتظاهَرُ بالسُّقوطِ علىٰ الرِّمالِ أو قُربَ الماءِ، فأشربُ عطشي هذه المرة مالحاً كي أنسىٰ ما ينتظر طفلي وكلُّ أطفالِ العالمِ من مجهولٍ، ولن أستطيع أن أرويَ لهُ أيَّةَ حكايةٍ فيما بعد، ستَجفُّ كلُّ القِصَصِ والحكاياتِ...

بعد اليوم، كلُّ ما أدركهُ هو أنهُ لولا العناية وَالأَلْطَافُ الربانِيَةُ لنفد إلىٰ البحرِ، ولن يكتشفَ أنه لا يعرفُ السِّباحَة إلاَّ بعدَ فَواتِ الأوانِ!!

ثم ها أنذَا جمرةٌ ساخنةٌ تشرع في الانطفاءِ منْ قَسوَةِ بردِ العالمِ وقُبْحِهِ، أشعرُ بشفقَةٍ يَشُوبها المِزاحُ وأنا أقَبِّلُ ابني الصغيرَ وأسترجعُ القليلَ من الأحداثِ، مع ذلك سأتحدَّىٰ لأجعلَ الكَهْلَ الَّذِي معي الآنَ، يضحكُ من قُبْحِ العالمِ وقسوةِ بَرْدِهِ، ويُطَوِّقُني بدراعَيْهِ ولن أسْقُطَ يمنةً أو يسرةً، وسأعرفُ السباحَةَ قبلَ فواتِ الأوانِ...!!

المسافة (14)

كوة في الغياب...!

أخيراً دلفَ الشَّيْخُ العجوز إلى حوشِ الدَّارِ الكبيرةِ، بعدما نزلَ من على ظهرِ الحمار، دافعاً بكِلْتاَ رِجْلَيْهِ ومُنزلقاً بشكلٍ بطيءٍ نحوَ الأرضِ، وقد أخذَ بِطَرَفِي اللِّجامِ لينحني إلى عُكَّازِهِ الَّذي رماهُ قبل قليلٍ، وبعدها حاولَ أن يحملَ الكيسَ الثَّقيلَ، ورغم العجزِ الواضحِ في وجه الشيخ إلا أن الإصرارَ المغمُوس بقلبه جعل الحمل يرضخُ للكفِّ المعروقة، والكلابُ تنطُّ وتتنقل وتقفزُ حوله في سعادةٍ ووداعةٍ وترقُّب، ثم وضع الكيس جانبا وقبل أن يتربَّعَ على إحدى العتباتِ، تحلَّقَ حولهُ الأطفالُ والصِّبْيةُ الذين أمسكُوا بيدهِ يقبِّلونها، وهو منشغلٌ بفتحِ الكيسِ الورقِيِّ ليُعطِيهُم بجُماعِ يدهِ بعضَ الفولِ والحمص الهاري، بعدها تناولَ مِنديلاً يحتوي حبات حلوى ملونة، ووزَّعها عليهم بالتساوي، ورمى ما بقي منها في فمهِ، وقد تربع بجُمود جديرٍ بالجمادات، لقد انحلَّتْهُ السنون العديدة، وما كاد يرتاح قليلا، حتى بادرتْهُ إحدى زوجاتُ أبنائه مقبِّلةً يدهُ، مومأةً لهُ بأن يدخلَ الصَّالةَ حيثُ الرجالُ وبعضُ الضُّيوفِ مجتمعين هُناكَ... وإذا بابنهِ الأكبر

وبعض أحفادهِ يهرعونَ إليه مقبلين وممسكينَ بيدهِ نحوَ الداخلِ، ويدهُ الأخرىٰ لاتنفَكُّ عن عصاه، تذوبُ مُقلَتاه في نظرةٍ عميقةٍ كأنها الأخيرة، وقد إلتصَقَت يداهُ علىٰ عصاه.

جلس الشيخُ العجوزُ في ركنٍ قَصِيٍّ من الصالة الطويلةِ المعدة للضُّيوفِ، بعدما سلَّـم علىٰ الجماعة، متّكِئاً ويداهُ مُشْتبِكتان علىٰ عُـكازه، ممرِّراً بين الفَيْنَـة والأخرىٰ كَفَّـهُ اليُمنىٰ هُبوطاً وصعوداً عليها، ثم وضع ذَقنهُ عليها وكأنَّـه يحاولُ أن يفهمَ ما يحصلُ، أطلْتُ النَّظرَ إليهِ وجدتهُ فاقداً لبعضِ أسنانهِ، التَّـجاعيدُ احتلت من الوجهِ أغلبه... والعينان فيهما حزنٌ كامنٌ يحاولُ الإفلاتَ من أَسْرِ الكِتمان، كان متدثِّراً بجلبابَيْنِ مختلفينِ لوناً، يَـبدُوَانِ مـن خلال فتحةِ السَّلهَامِ الأحمر القديم، رفع ذيلَ جلبابهِ الأسودَ، فظهر تحته ثوبٌ آخرُ أبيضَ اللَّونِ، دسَّ يَدهُ في جيب الثوبِ الثاني ثـُمَّ أخرجها مضمومة، فتح الكَفَّ عن عدة نقود عزلَ بعضها، وأرجعَ البقِيةَ إلىٰ مكانها الأوَّل، ليناولها إلىٰ الصبية والأطفال المتردِّدينَ هنا، كنت أحِبُّ قصصه، اقتربتُ منه، جبينهُ عَـارٍ من الشَّعَر وحاجبين كثيفين، ووجهٌ معَتَّم ذو لحية شيباءَ مائلةٍ إلىٰ حُمرَةٍ، وعينين رماديتين، والعمامةُ التي تلتَـفُّ حَول رأسه لم تكن غير خرقَةٍ إضافية بيضاءَ، لقد كان ذا حضورٍ وَقُورٍ، وكان يسخَرُ ويحبُّ البَسْطَ دون أن يُوَرِّطَ كرامتهُ أو مروءَتهُ، كان يجلسُ إلىٰ يسارهِ فتىً بِوَجْهٍ مستطيل، يبدو أصغَرَ سِـنًّا خمْرِيَ اللَّوْنِ، في بَدانَةٍ بارزةٍ، يَـرتدي لباساً متأنِّقاً، هذا هو الضيفُ المُحْتفَىٰ بِـه، والَّذي جاء

إلى هذا الفِيلاَج عازماً الاستقرارَ به، لم يكنْ يعلمُ أحدٌ ما كان باستطاعتهِ أن يعلمَ، غير أن شيئاً غامضاً يختنقُ الآنَ، يتمرَّدُ ويستيقِظُ داخلَ صدرِ الشَّيْخِ العَجوزِ بغير استسلامٍ، في هـذه الأثناء كان الكل يحتسي كُؤوس الشاي، ويتناولُ الحلوىٰ والتمر والجوز واللوز في انتظار الطعام، سرعان ما تنهَّدَ العجوز ليتلفظَ بكلماتٍ وقد غَمْغَم طويلاً، لَمْ أفهَم منهُ شيئاً سوىٰ "خَلِّي ناسْ لَبْلَىٰ فْبْلاَهُم، لا تَرْفَدْ لا تْحَطْ مْعَاهُم، ولاَ شَفْتي الْوَادْ دَّاهُم، قُلْ الله يْكُون مْعَانا ومْعَاهُم" ثم وكأنه يوجه كلاما لهذا الضَّيْف بقوله: "أَلِّي حَبْنا نْحَبُّوه، ونْدِيرُوهْ فُوقْ رَاسْنا عْمَامَة" لكن لا أحد انتبه إليه أو أعاره اهتماما، لقد كانُوا منشغلينَ بضيفِهم. ثم تَنَحْنَحَ وكأَنَّهُ يَعْزِفُ لحناً تَمْتَزِجُ فيه أَوْجاعُ الحيـاةِ وأشواقُها وعيناهُ مُغْمَضَتان، وقال: "ليس الْعَجَبُ مِنْ وَرْدٍ في بُسْتان، إنما العَجب من وَرْدٍ في أعماقِ النِّيران" لينفثَهُ في وجوههِم رداً على عَدَمِ اكتراثهم، ثم أردفَ: عشيرة طيبة ومسالمة، وفكرتُ أنه يمكن أن يكون هذا الرجل الغريبُ غادراً، ولقد أَكَّدَ ظني ما قال الشيخُ العجوزُ ذلك اليوم وباستغرابٍ ضَئِيل...

وفي يوم آخرَ، ثمة لَغَطٌ وكأَنَّه آتٍ من مَصْدَرٍ سَحيقٍ، والأصواتُ متناثرة تُزَمْجِرُ باللَّعَنات والحديث عن الخداع والاحتيال، وكانت أصوات الكلابِ ممزوجة بلَغَطِ الناس الوافدة إلى هذه الْفِيلاَّ، الأشجار الوارفةُ تتَقاطرُ أريجاً، وكأنَّ النُّفوسَ الْمُمَزَّقَة المتَصَايِحة استيقظت من حلْم مزعج! حين وقفوا متزاحمين أمام بستان الغريب،

ودائرةُ الزِّحَام تَكادُ تَخْنِقُ الأنفاسَ، مقاومة صيحاته وتهديداته، والتي تدعُو لكي يتراجعُوا ويعودُوا أدراجَهُم إلى حَال سبيلهم وإلاَّ... وهوَ يُطِلُّ عَلَيْهِمْ منْ أعلَى الشُّرْفَةِ المُمْتَدَّةِ طويلاً تَشِي بالمَكانَة التي يتمتَّعُ بها الآنَ، لقد جاء إلى هذا "الْفِيلاَجْ" وهو لا يملكُ شيئاً، حتى استحوذَ على أغلبِ الأراضي، فقد تَصاهَرَ مع بعض أعيانِ البلدة، وصارت له كلمة ونفوذ، كما اكتسَب كل شيء، لما صار ممثلا لهم لما انتخبُوه، ولكن لم يحقِّق لهُم أيَّ شيء يذكر، وها هو يحملقُ طويلاً، يلتفتُ يمينا فيديمُ النَّظرَ، يضربُ كفًّا بكَفٍّ عابساً، ثم يقلِّبُ وجهَهُ يساراً فيظل كذلك حتى يظهر أنه لن يعيدَ وجهَهُ إلى وضعهِ السَّوِيِّ قَطُّ، حالة من التَّظاهُرِ والتَّمثيلِ والتلاعُبِ بمشاعرِ أهْلِ البلدةِ، حَالةٌ شَحذَتْ الأنْفَاسَ وأطالتْ الآذان، ورَسَّخَت في الأعماقِ هَواجسَ التَّرقُب... وانعدامِ الثِّقَةِ أما الأحلامُ والمشاريعُ والإنجازات، فالتساؤلات هي نفسها، لاشيء تحقِّق! استفاد الآخرون، أما الناس هنا، فها هو يطردُ معظمَهُم من هذه التعاونيات التي أنجزها على أكْتافِهِم، وقد شرَّدَ أُسَرهُم، وشتَّتَ أحْلامَهُمْ، واعْتَصرَ قُلوبهُمْ...، بعد التَّحايُلِ والسَّطْوِ على أراضِيهم، وها هو الضَّياعُ يَكتَنفُهُم، لقَد أبعدَ القريبينَ، وقرَّبَ البعيدين، سياسة ولعبة أخرى للتَّمكُّنِ، فأولئك الذين يقطنونَ في أعالي الجبال استفادُوا، أمَّا هم في السَّفْحِ وعلى جانب الطريق بالسَّهل، فقد ظلوا كذلك، ولم يتحقق لهم أيُّ شيءٍ يُذكر، كانوا يتوسَّمُونَ فيه كلَّ الخير، لكن...! خابَ ظنُّهُم، كذب على الجميع واستلم مُقابِل ذلك

أموالاً طائلةً... عندما رأيتهُ للمرَّةِ الأولىٰ لم أُبالي به كثيراً، بل لم أكن مُرتاحاً إليهِ، مثلما الشيخ العجوز في ذلك اليوم، وقد قضىٰ الشيخُ نحبَهُ منذُ سنوات، لكنه مازال حاضراً، أتَذكرهُ بشغَفٍ كبيرٍ، وأتذكر ذلك اليوم، كصورة ماثلةٍ أمامي كما لو أنها تقعُ الآن... حين هَمْهَم بكلامٍ طويل، ولم ينتبه إليه أحد، وتنحنح ولم يبالي بهِ أَحَدٌ أو يُعِرْهُ أَيَّ اهتمام، غفلة وشرود...، غشاوة شديدة أحياناً تطفئ نورَ البصرِ ولكنها لن تتمكن من أن تحجب نور البصيرة، فبالاعتبار تظهر الأسرار، وبقديم الاختبار يصح الاختيار، صرت أعلمُ الآن ما كان يقصده "إلىٰ شَفْتِيهُم ضَحْكوا لينا، اعْرَفْ حاجَتْهُم فينا"، كما أدركت الآن ما كان يعنيه الشيخ العجوز بشيءٍ من الحكمةِ في ذلك اليوم لما قال:"احْضُوا مَلِّي جاكم يَتْلَوَّىٰ ويَتْخَوَّىٰ، سَدُّوا بِيه الكُوَّة، قْبَلْ ما يْسَدْها بِيكُمْ هُوَ" لتكون عبرةً بعد ذلك، فَهل تُراها تَـنْفَع أم قد فات الأوان...؟!

لقد تركُوا السُّؤالَ بلا جوابٍ... وتركُوا الحِكَمَ تلوكُها الألسن في المناسبات وحين يتسامَرُونَ...، وأَوْدَعوها خربةً مُظلِمةً ترقبُ كلَّ قادمٍ وذاهبٍ ليُعيدَ نَسْجَها وبلوَرَتها...

ثُم انسحبتُ ضيِّقَ الصَّدْرِ، فقد كان المنظرُ برُمَّتهِ يوحي بجوٍّ من العَبَثِ سواء من خلال زحام الناس، أوفي ملامِحِ وهيأةِ الغريبِ وهو يمْشِي ويجيء مُطِلاًّ من شُرْفَتهِ، ثم خَلاَ لهُ الجوُّ، فَصَارَ يجمعُ الناسَ من جديدٍ، ويدعُوهُم للوَحْدةِ، مهمتُه الأُخْرَىٰ هُو الَّذي أَصْبَحَ لهُ شَأْن...!

المسافة (15)

آلة صماء وإنسان...!

اِنتهى به المطاف أخيراً – بعد انتظارٍ طويلٍ مُمِلٍّ عَقِيم في طابور حَشْدٍ هائلٍ أمام الصَّرَّافِ الآلي، قَرَّرَ أن يَسْحَبَ كل ما يملِكُ من مال، لِعِيَّالِه ولكل الصُّفوفِ الـمُتَرَاصَّةِ مِنَ الْمُتَسَوِّلِين هُناكَ على جَنَبات الطَّرِيقِ الْمُؤدية إلى مسكنه، بِما يَكْفِيهم مَؤُونةَ السُّؤال، ومَا يلزَمُهُم منَ الدَّواءِ والغِذاء..

مدَّ يدهُ وهو يحاولُ الْتِقاطَ ابتسامةٍ جديدةٍ لكائنٍ خُرافيٍّ... وقبْلَ أن يَبُوحَ بأرقامِه السِّريةَ، لم يصدقْ نَفْسَه حين تسلَّلَت إلى أُذنيه كلمة هَـزَّتْهُ بقوةٍ "أهْلاً بكَ يا طَيِّب أنا مِلْكُ يدَيْك، إِفْتَحْ دِرَاعَيْك..!" إِخْتلس نظرةً سريعةً ليتأكَّد، ضَغَطَ على الأَزْرَارِ، فجأةً انْغَلقَ الجِهَازُ بَعدَ أن رَمَى بالبطاقةِ محدثاً رنَّةً خفيفةً، وانطبقتْ شفتاهُ بشيءٍ مِنَ الإنْدِهاشِ...! وأَغْمَضَ عَيْنَيهِ كمنْ لا يُصَدِّقُ! ثم غَمَرتْهُ سَعادة لاَ تُوصَف وهو يسْحَبُ الأوراقَ النَّقديةَ الْمُتَسارعةَ في خِفَّةٍ نَحْوَهُ...

– كان الصَّرَّافُ الآليُّ هذه الـمَرَّة سَخِياً كَريماً بمَا يَكْفِيهِ ويكْفِيهِم، كَما لَو أَنَّهُ أَحَسَّ بِهم، جعلهُ يَنْظُرُ إليه نظرةً طويلةً واجمَةً ثم

حَشْرَجَ بالبكاء، وتساءل: هذا يكفيني ولكل هؤلاءِ الصَّابرينَ على الجِراحِ...

هُنا عَصَفَتْ في ذهنِهِ احْتِمالاتٌ شَتَّى، كأنها تَلْعَن أو تشتم، أزرتْ بدُنياه ولم تَرْحَمْ...

- حَنَّ الصَّرَّافُ الآليُّ وهُوَ آلةٌ صَمَّاء، ولَمْ يَرْحَمِ الإنسان...!

- هُنَا قَتلَتِ الأحلامُ أحلامَهُ، وكأنَّها عَـدَم!

المسافة (16)

نظرة بنظرة..

تَوَقَّفتُ عندَ المكتبةِ لأشتريَ كتاباً أقرأهُ أثناءَ سفري غداً، ثم قَفَزْتُ إلى ناصيةِ الشَّارعِ في الجِهَةِ اليُمْنى لمفترقِ الطَّريقِ، لَكِنْ لَـمْ أجِدْ شيئاً يستحقُّ العَناءَ... فكُلُّ العَناوين غارقةٌ في الفراغِ، عَنَاوِينُ تَخْتزِلُ الأَلَمَ والخَواءَ والاجْتِرارَ، والدَّجَلَ والإدِّعاءَ والخِداعَ، في غِيابٍ للثَّقافةِ والخدماتِ والقِيَمِ، وهُبُوطٍ سافِرٍ لمنارِ الفضيلةِ، لاشَيءَ يُذْكَرُ... شيءٌ واحدٌ هو المَكْسَبُ والرِّبْحُ، والمَظاهِرُ والزَّهْوُ والزَّيْفُ الخَادِعُ، والمعيشُ اليومي، جاهدتُ التمزُّقَ لأخرجَ من هذا المُسْتَنْقَعِ الكريهِ، في هذه اللَّحظة، أثارتني طفلة تنفخُ العلكة بالوناً غَيْرَ عابئةٍ بشيء..! ورَجلٌ واقفٌ بسترةٍ بُنيةٍ وسروال أسود مكوىً بعناية، ينظرُ عابساً باستفهامٍ إلى آخر بازدراءٍ واحتقارٍ من الأسفلِ، حذاؤهُ البلاستيكيِّ الشَّتَويِّ مليء برَوْثِ البهائمِ... وأثوابهُ الرثَّةُ لا تختلفُ عنها في اللَّوْنِ كذلك، هذا الأخير ضئيلُ البنيةِ، يقفُ على مفترق الطَّريقِ الضيِّقِ المُوحل والمفروشِ بالقُمامةِ والقاذورات المُتعفِّنَةِ، وطفِقَ يَنْظُر هو الآخرُ بتعبٍ وسأمٍ وحنَقٍ ونَفاذِ صبر، كأنَّه يترقَّبُ بحزنٍ على وجهٍ منَ الفَظَاعَةِ لزَخَّاتٍ

من السُّحُبِ، تنتشرُ فوق رأسِهِ مُصْطَبِغة بلَوْن رَمادِي أَدْكن أملُهُ للعودةِ والرُّجوعِ لبَلْدَتهِ، ينظرُ الآنَ إليهِ بهُدوءٍ حاكًّا شَعْرَ رأسِهِ بأصابعهِ، وعلىٰ وجههِ علاماتُ ضَيْقٍ ظاهرٍ... ويبتسم كالأبله، يرفع عينيهِ ويتتبعُ بصعوبةٍ فكرةً ملحاحةً تنزلقُ بين الفَيْنَةِ والأخرىٰ من ذهنهِ، وهو يمسحُ العرقَ بكِلْتا يَديْهِ، بصَقَ، نظَرَ إليهِ برعُونَةٍ، وقال: لِمَ تنظرُ إليَّ هكذا؟ رفعَ رأسهُ، سَبَّهُ بزعيقٍ وشَتَمهُ ثم انسَحَب.

باحَ بما يُخْزِنهُ... ولَّما انْفَلَتَ الحُزنُ، سدَّ الطَّريقَ أمامَهُ...، طريقُهُ أيضاً كانتْ مَسْدُودَةً.

المسافة (17)

الاجتماعُ الأخير...!

كان يعتقِدُ أن العمل هنا سيختلف عما هو عليه في الشركةِ التي تَركها عُـنْوَةً واضطِراراً، فَلم يكُنِ المكتب كما تصوَّرهُ، مُنَظَّماً يَليقُ بكفاءاتهِ وقُدراتهِ، ولم تكنِ النَّظراتُ والأجْوَاءُ أفضلَ ليفجِّرَ طاقاته ومهاراته...

صار يتجَرَّعُ انكساراته، ويسترجِعُ ثقتهُ بنفسه شيئاً فشيئاً، فقد طمع في أن يرىٰ نفسه وقد نال حقا من الحياة، وأن يرفَعَ البُؤسَ والهوانَ عن نفسه، لوكان له ركيزة لما أتىٰ لهذا المكانِ، ولما طاله شطَطُ الجُورِ اللَّعينِ والظُّلْمِ المُسْتَبِدِّ الذي لحقَهُ، فما جدوىٰ أن تُعاند؟ فحين تعُمُّ الفوضى وتحُلُّ الظُّلْمَةُ يجدر ألا تتوقَّعَ شيئاً، ولن تتلمَّسَ خَيْطَ الضياء، ولن تنفذ إلىٰ الوجهِ الآخرِ للأشياءِ، فما جَدْوىٰ أن تُعانِد...؟!

كان بإمكانهِ كَتْمَ الأمر، وكأنَّ شيئاً لم يكن، ولن يكون هناك شيء إنْ أرادَ، لكن إلىٰ مَتَىٰ سيكذب علىٰ نفسه؟ إن تصوَّرَ أن حياتَهُ ستستمر! يمكن أن يستأنف مسيرتهُ المعتادةَ وكأنَّ شيئاً لم يكن.. ولكنه إن تكلَّمَ فَلن يَتبَقىٰ شيءٌ كما كان سابقاً، خِيَّارَانِ أَحْلاَهُما مُرٌّ! فإلامَ

تَرَدُّدُهُ؟ منذُ ستةِ أشهُرٍ وهو يتهيَّأ ويُعِدُّ نَفْسَه، ليطفئ جَمْرَ الرَّفْضِ الَّذِي طَالَهُ، لقد تَمَّ نَقْلُه تَعسُّفيا انتقاماً ليقصم ظهره، بعدما كشفَ ألاعيبَهُم وحساباتهم المُزَوَّرة، سرقُوا مشاريعه، واسْتَولَوا على تصاميمهِ، ورَمَوْهُ بعيداً، فكان قراراً بدون رحمة، حَوَّلَ حياتَهُ رأساً على عَقِب..، ها هو يفْرِك يدَيْه بعصبيةٍ ويبتسمُ بقَلقٍ قبل أن يَهْمِسَ:- رُبَّما أحلامكَ يا حمزة كانت كبيرة، ماذا أفادتك قيَمُك...؟ ماذا كان سيحصل لَوْ لَمْ تنتبِهْ، وتَرَكْتَ الأمورَ تمضِي، وكأنَّ شيئاً لم يحدث...؟؟!

ملفاتٌ إطَّلَعَ عليها صُدْفَةً فأرَّقَتْهُ ليالِيَ طويلة، لم يكن ينامُ خلالها إلاَّ بالمُهَدِّئاتِ الَّتِي وصَفَها له الطبيبُ. لو صمَتَّ ولم تنظر إلى كلِّ ذلكَ نظرة "فشي شكل" لما حصلَ ما حصَل.....؟؟

كان حمزةُ يحسُّ بكَمَدٍ، وكان يتوقَّعُ أن يكون السُّقوطُ مُدَوياً. لقد حاولَ نِسْيانَ ذلك التَّكَهُّنَ ولم يُفلِحْ. كان يتمتَّعُ بِبَصيرةٍ فذَّةٍ، ولأولِ مرَّةٍ تخونهُ كما خانَهُ الجميع، ليُعيدَ ترتيبَ أوراقهِ من جديدٍ...

يقفُ الآنَ أمام المرآةِ داخلَ المرحاضِ في الدور الثاني من الشركةِ، منذُ مدَّةٍ طويلةٍ لم يتأمل وجهَهُ بهذا الشَّكْلِ، ينظرُ إليهِ ويبتسمُ، يقول في نفسهِ، لم أكُنْ أَدْرِي، كم أنا أحبُّكَ، كَمْ أنا أَحِبُّ الحياةَ، لا يُحِبُّ الحياةَ من يَكْرهُ نَفسَهُ، في هذه المرآةِ شيءٌ يشبهُني، فيها شيءٌ من الرِّجَالِ، لا أستطيعُ وَضْعَ أصبعي عليهِ، كم هي قويةٌ هذه المرآة، مجرد أن تكون حيا... يا للعُقوقِ، أنت ذو شأنٍ ولا تَدْرِي...! مُجَرد أن تكون حَيا هو كلُّ الفرحِ، تلك هي النِّعْمَةُ والسَّعادَةُ، وهاهم يحاوِلُونَ وَأْدَهَـا...!

لحمزة عينانِ عسليتانِ واسِعَتانِ تَبلُغانِ النَّاظِرَ إليها فيُخَيَّلُ إليكَ مثلاً أنهُ أطولَ بقليلٍ مما هو عليه بالفعل، ارْتَبَطَ بنجاحِ ذاتهِ. يتصورهُ الآنَ....، كما أن حركةَ جسَدِهِ المُقَنَّنَة لشدَّةِ خَجلهِ المقمُوعِ ربما تُعْطِي شيئاً منَ النُّضْجِ والحكمةِ... يعرفُ الآنَ أنَّ مَنْ يعيشُ وسَطَ الغابةِ لا يرىٰ إلاَّ عَدداً مَحدوداً من أشجارها فقط، ولا يرىٰ الغابةَ كلها، أو كمن يغرقُ في همومهِ اليوميةِ، ها هو يتقَوَّىٰ بمزيدٍ من الإيمانِ بقضاءِ الله وقَدره، ثم الرضى والصبر الذي أخذَ يتسلَّحُ بهما في كل أمورهِ، فما أصابه ما كان ليخطأه، هو الذي كان قبل ذلك يصب جامَّ غضبهِ علىٰ ذاتهِ دون هوادةٍ أو رحمةٍ، ثم علىٰ من حولهِ، ثم تمرُّ بهِ لحظاتٍ يشعرُ فيها بالكُرْهِ والسَّخطِ علىٰ الإنسانيةِ، وعلىٰ الفَور يُحسُّ بالذَّنْبِ... كأنه المُذنِبُ في كلِّ شيء، لا يعرف ما به، أو ما الذي أصابَهُ! حالات من الإحباطِ واليأسِ التي لا يجد لها معنىً... في زمن اللامعنىٰ، فقد كان يواجه بتلقائية، لا يُجاملُ أحداً، عفويا لأبعدِ الحدودِ، أوقُلْ لا يخافُ في الله لومَةَ لائم، ولذلك وفي نهايةِ المطافِ يتحمَّلُ تَبِعاتِ كُلِّ ذلكَ... يتساءلُ كثيراً، كمن يَهدي، ما هذا الحِقْدُ والكُرْهُ الَّذي يَسْكُنُ الإنسانَ؟ وما هذا الخداعُ والقِناعُ الَّذي يتَشَكَّلُ في صورةِ إنسان؟

سداجة أن يغفل أو أن يتغافل الإنسانُ ويعتقد بدوامِ واستمراريةِ الأشياء...؟ والخُلودُ سداجةٌ عظيمةٌ تسِمُ الحياةَ البشريةَ كلها.. خداع وأي خداع، تساءل – ما العمل، وكيف العيشُ لاحقاً..؟؟

وهل كان ثمةَ معنىً فيمَا عاشَهُ سابقا؟ وهل يمكنُ للإنسانِ أن يَعِيشَ بكرامة؟ هذا هو السُّؤال! الأسئلةُ تفتحُ لهُ أبواباً لاَ يعْرِفُها، من لاَ يَسأل لاَ يَحْيا...! أحياناً يُحِسُّ بالعَجْزِ عن الفهم، تَغْزوهُ أَيامٌ مختلفة مُسرعةُ، لاَ الفرحُ فرح ولا الحزن حزن، ولا الزمان زمان ولاَ العواطف عواطف، وكأن الثقةَ ضاعت..! فمن هو بَعْدُ؟ وماذا بَعْد؟ لا يحس بشيءٍ، يعيشُ الحزنَ ويصبرُ عليهِ، ويحذَرُ الفرحَ ولا يأمنُهُ، صار متأقلماً مع أيِّ حال، مردِّداً: ما الحياة الدنيا إلاَّ متاع الغرُور، وفي النِّهايةِ الجَوْهَرُ هو الأصلُ، وها هيَ الأحداثُ تعودُ من جديدٍ تكادُ تتكرَّرُ بالصورة نفسها، كما لو أن التاريخَ يعيدُ نفسَهُ... حالةٌ شبيهةٌ... كما الامتحاناتُ الدراسيةُ حيث نتجاوز عثراتنا، حقيقة يدرس الإنسان ثم يمتحن، لكن في الحياةِ فإنه يمتحَنُ ثم يصلُ إلى استخلاصِ الدُّروسِ والعِبر...

لذلك ففي هذه المرة سيكون التحكم بشكل أفضل، فليس له ما يخسره، اجتماعات تِـلْوَ أخرى بلا طائل، ولقد ألِفَ ذلك، ولم يَعُدْ يهم، في هذا الاجتماع، قرَّرَ أن يضعَ قطنا في أذنيه، لَيْتَهُ يحظى ببعضِ الهُدوءِ والسُّكُونِ، لكن كأن الصدى يخترقهُما، أصواتٌ تنسابُ، تملأ الجنباتِ تتسلَّلُ إلى سمعهِ، مثل حُلْمٍ يَسْري كالخَدَرِ في أَوْصَالِه يستوقِفُها فتَنْفَلِتُ، فهل سيكون آخرَ اجتماعٍ يحضُرُه؟ هو الَّذي أعَدَّ استقالتَهُ منذُ شهرينِ، حتى يقدمها في الوقتِ المناسِبِ.

أقبل مع الذين توجَّهُوا نحو القاعةِ واحداً واحداً، فلا يرى إلا معالِمَ الحُزْنِ والألمِ والإعياءِ، ففي الداخلِ تجمَّعَت وفودٌ من النساءِ

والرجال وكأنهم مستعدُّونَ منْذُ أيامٍ لهذا الحفلِ أو الاجتماع، كانت القاعةُ تغرقُ في شُعاعِ الأضواءِ والضَّجيجِ، قبل أن تضُجَّ بالتَّصْفيقِ، الروائحُ الزكيةُ والضَّحِكُ، والملابسُ والألوانُ، أما هو فيبدو أنَّهُ لم يتصالحْ مع ذاتهِ، ولم يتكَيَّفْ مع واقعهِ الجديدِ، خيالاتهُ السُّودُ تَدورُ في رأسِهِ مثل الطَّواحينِ والتي لا ترحم، الروتين هو الروتين، والملَلُ يتسَلَّلُ مثل السُّمِّ الزُّعافِ....

فقد مَلَّ من الأحاديثِ التَّافِهَةِ، أصبحت سخيفة جداً ومُبتذلة منذُ أمدٍ، والمراوغةُ تُخَيِّبُ ما لم يَكُنْ في الحسْبَان.

هاهُمْ يُقْبِلُونَ نحو القاعةِ واحداً واحداً، فلا يرىٰ إلاَّ معالمَ الحزن والألمِ والإعياء، يكاد لا يصدق هذا الذي يرىٰ، هذا هو "نائب المدير" أين مرحه وضحكته المجلجلة التي رآها في أول لقاء؟ هو ذا منكَّس الرأس في استكانةٍ مُريعَةٍ...هو الَّذي كان حضورهُ يُضْفي علىٰ المكانِ حيويةً وهَيْبَةً، يبدو الآن مُنْكَسِراً مُنْهَزماً... كما تَلُوحُ نُتفٌ من وجوهٍ عتيقةٍ عاريةٍ من شُخوصِها... ثُم يلوحُ وجه "خالد" الجريء، وتذكَّرَ أن ليسَ ثمَّةَ علاقة البَتَة، الصراعُ سيِّدُ الموقفِ، شأنهُ شأنَ الآخرينَ...كان مُشاكساً جيداً فحسب... يدورُ في حلقةٍ مُفْرَغةٍ، سَخِرَ منهُم، تدخَّلَ بصلابةٍ، كما لو أنَّهُ في حلبةِ مُصارَعةٍ، غرسَ في حُلوقهم وحَناجِرهِم أشواكاً، فانتفضُوا في وجههِ، واستمَرَّ في مُواجَهَتِهِم قائلا: "سيأتي اليوم الَّذي تَزولُ الغِشاوَةُ"، في هذه الأثناء تدخل رئيس المصلحة "عصام" الذي لم يحَرِّكْ قسمة واحدة من قسماتِ

وجهه الفَظِّ، وراحَ يُنَقِّبُ بأصابعهِ المتينةِ شاربَهُ، وأخذَ يتكلَّمُ بنَبْرةٍ مُنْخَفضَةٍ...، وكان البعضُ يُصيخُ السَّمْعَ مُتَظاهراً بالاستماع لما يقولُ، أما البعضُ الآخرُ فكان يُلْقي بنظراتٍ ساخِرةٍ، مُردِّدِينَ ومُعلِّقينَ بأصواتٍ مختلفةٍ مُتباينَةٍ قُوة وضعفاً، عُلوّاً وخفوتاً، ثم تنحنَحَ "مصطفى" محرِّكاً يَديْهِ في انفعالٍ، قطفَ ورقةً صغيرةً وجعلها كَوَرْدَةٍ ثم راحَ ينزعُ عنها وُرَيْقاتها، كما كان يفعَلُ في ماضياتِ أيامهِ كَكَشْفٍ للحَظِّ، حتى أنْهَى آخِرَ وُرَيْقَةٍ من الوردةِ وتكشَّفَ عن حسنِ الطَّالعِ، وأردفَ قائلاً:- هذه الوردةُ بمسارِ إيحائها، أجابَتْ بنعم لهذا اللِّقاء.

فجأةً تدخَّلَ المدير العامُّ مبتسماً بسخريةٍ، محاولاً تهدئةَ الوضعِ الذي خرج عن السيطرةِ واللياقَةِ، رفعَ عيْنَيهِ، تكلَّم كثيراً بلا معنى، يُزبِدُ ويُرعِدُ ويَغْلي كغابةٍ مليئةٍ بالزَّرازيرِ، وكأنَّهُ يتتبَّعُ بصعوبةٍ فكرةً ملحاحة تريدُ أَنْ تنزلِقَ من ذهنهِ العصِيِّ، ثم تكلَّمَ بلسانٍ مُنعقدٍ ثقيلٍ وهو يلهثُ كما لو أنه قطعَ مسافةً طويلةً عَدْواً، وكما لو أمهلوهُ حتى استيقنوا تماماً من فشلهِ فعيَّنوهُ مديراً، يحضرُ ببدلةٍ جديدةٍ وبربطةِ عُنقٍ مخَطَّطَةٍ ومنقَّطَةٍ مُدلاة أسفل الطَّاولةِ أمامهُ مثلَ لسانِهِ، مشيراً إلى أن الإحصاءَ الذي وردَ في التَّقريرَ الماليَ يُغري بالدقَّةِ والعِلميةِ ولا علميةَ له، وأنَّ الفائضَ من الأموالِ يجبُ الاحتفاظُ به حتى يجدَ طريقاً، بدلَ توزيعهِ على الموظفين لتشجيعهم والرَّفْعِ من معنوياتهم...، مُعقِّباً كذلك على مندوب الماليةِ، هذا الأخير سردَ تقريرهُ بشرودٍ عابسٍ قبلَ قليل، وقد ألقاهُ بجدِّيةٍ مُصْطَنَعَةٍ مُرهفةٍ مثلما استماعُهم إليْهِ، وكأنَّ الجميعَ

يَهذي هَذيانَ المختلِّينَ، بدَا المُديرُ العامُّ كذلك مُقتنعاً بجنوحهِ الرَّاسخِ، وهو على ما يبدو متَّفقٍ وغير مُتفقٍ مع استنتاجاتِ ذهنهِ المحمُومِ، أمامَ اندهاشِ واستغرابِ بعضِ المُنْدُوبينَ والممثلينَ وأعضاء المجلسِ لشركاتٍ تابعـةٍ، سمعت كلماتهم المتناثرة، كما لو أنهم ينثُرونَ الأشواكَ على تدخلاتِ المدير العام،" هذا غير معقول، هه! الرويبضة، المسخوط، الزنديق... إنه يتفوه بأشياء مبتذلة..

ثم تقدم أحد الأعوانِ بصينية الشايِ والقهوةِ والمشروبات وبعض الحلوىٰ، فسحبَ كل واحد ما شاء، وراح حمزةُ يتجرَّعُ من الفنجانِ جرعة جرعة حيث لاَسُكَّر، فقد إستأنسَ مُتْعَةَ قهوتهِ السَّوداءَ "قطرانه" الذي يَشي بمرارةِ هذا اللقاء، في حين فإن الأعضاء: سامح الشريف ونادية "كانا يتبادلان النظرات ويرتشفان في صمتٍ كؤوسَ الغَزل، وكأنهما يحنُوانِ على بُرْعُمٍ غَضٍّ يتكوَّنُ في صمتِ الأعماقِ، وعلى رعشاتٍ بِكْرٍ ذات غُموض لذيذٍ، فجأةً تعالتِ الأصواتُ مرَّةً أُخْرىٰ لكن كانت أكثر حدة من السابقِ، واشتعلَ الغيظُ واللَّغَطُ والسّخطُ والفراغُ، أصواتٌ جوفاءَ تطيرُ مثْلَ الدُّخَّانِ في الهواءِ وبلا معنىٰ، شقشقاتٌ وجعجعاتٌ ولا طَحين...! تقوقعَ كل شيء إلىٰ هذه اللحظة، في القاعةِ كما المِنَصَّة، كما تَقوقعَ حمزةُ هو الآخرُ على ذاتهِ، وبمزيدٍ من اللَّعناتِ! لم يكن يلتفتُ إلى الوراءِ كثيراً، كان بعضُ أصدقائهِ في غير ما مرَّةٍ ينصَحونَهُ أنِ ارحَمْ نَفْسَك....!

تدخَّلَ مسؤولٌ آخر عن هيأةِ المجلسِ مُعقِّباً وهو يخلَعُ سترتَه بعنفٍ، وبعد أن فَكَّ أزرارها، ومسحَ بالمنديلِ المضْمُومِ بيدهِ على جبهتهِ العريضةِ، لم يَرد أحدٌ عليهِ، ثم حلَّ عُقدةَ ربطةِ عُنُقِهِ متأففاً، ليسألَ أسئلة غبية! وعقَّب - عَملُكُم عملَ سُلحفاةٍ وليس عملَ آلات، والأمْرُ يتطلَّبُ السُّرعةَ لإنجاز المهام، لأن الوقت من ذهب، وأطنبَ طويلاً ولم يصمت، حتى تدخل رجلٌ مُسِنٌّ بشَيْطَنةٍ ومَكْرٍ يمدُّ لسانَهُ شامتاً وبابتسامتهِ الذئبيةِ، وبتوَدُّدٍ عريضٍ، كمن يدعو إلى السلامِ... التي بذَّلَتْ مظهرَهُ قبلَ قليلٍ، وفكر: أين حقيقته؟

وإذا به يقول: - رُوَيْدَكُم! إنها مهزلةٌ تبعثُ في النفسِ أشدَّ حالاتِ الغيظِ والقهرِ، ثم حدَّقَتْ إليهِ أخرى مقطِّبَةً وهمَّتْ بأنْ تتكلَّمَ، لكن داهمتها نوبةُ سُعالٍ حادٍّ لم تتخَلَّصْ منها، حتى أخذتِ الكلمةُ أُخْرَى بيضاء بشعرٍ أشقرَ تقرأُ من خلال ورقةٍ تمسِكُها بيدِها اليُمنى ضاغِطَةً على الحروفِ بنبرةٍ لثغاءَ مُتَرَدِّدةٍ، بوجهٍ خمريٍّ وابتسامةٍ خاليةٍ من الحياةِ، تعبير العينين الغائرتين، والسُّحْنةِ المنْقَبضَةِ، الصوتُ الخافتُ المتَقَطِّعُ، والأصابعُ على النظارةِ لتمنَعَها منَ السُّقوطِ...، كانتِ الكلماتُ تتكرَّرُ أوتَرِنُّ كقطراتِ ماءٍ على آنيةٍ نحاسيةٍ، تحذلِقُ وتبحلقُ في الجميع، ثم تدخَّلَ أحدُ المتملِّقينَ برأسٍ كبيرٍ وأنْفٍ مُتَوَرِّمٍ، يبدو كمهرج، يتصنَّعُ الحياءَ والحرَجَ ويفتقِدُ اللياقةَ والأدبَ...، محاولاً العبثَ بالجميع، يتلفِتُ إلى كل الاتجاهات، معجباً بنفسهِ، وكأنه يلقي نُكتةً ساخرةً، يريدُ إسعادَ

الجميع، في هذا الصباح المشمس، والهواءُ المائلُ للبرودة، ثم بدأ الكُلُّ يقهقهُ كالخنازيرِ أو النِّعَاجِ الجَرْبَاء أو كالكلابِ الضَّالَّةِ....

ومن آخر القاعةِ جاء صوتٌ بعيدٌ ليتدخل دون إذنٍ سابقٍ، صوتٌ جَهْوَريٌّ ضخمٌ مُجلجلٌ، حانقٌ على الأفكارِ السَّابقَةِ، ولم يُضِفْ شيئاً، وإذا بسيدةٍ طاعنةٍ في السن بخصلات شعرٍ أبيضَ تتدخَّلُ بصرامةٍ، حالةٌ شبيهةٌ من القلقِ واليأسِ تستأنفُ مسيرتها وكأنَّ شيئاً لم يكن، منذُ أسبوعٍ وهي تهيئ، وتعد نفسَها لهذا اللقاء، خطَّطتْ لكلِّ شيءٍ، حفظت عن ظهرِ قلبٍ كل كلمة ستجودُ بها، وطريقة لفظِها، وردود أفعالها، وكيف تُواجهُ، ومتى تصمُتُ، كانت أمامها فتاة في عقدها الثالثِ تدخل هي الأخرى مباشرةً بغُنْجٍ ودلالٍ، تدَلَّلتْ طويلاً، وهي تلتفِتُ في كلِّ الاتجاهات هِيَ الأُخْرَى وتقولُ: - كيف يمكن تفسير هذا الدَّوَرَان الملح الساكن إن صح التعبير؟ ها كلُّ شيءٍ أصبح مبرراً الآنَ...! وإذا بتدَخُّلٍ آخر تدخَّلَ بنبرةٍ مُجامَلَةٍ جارحةٍ... أخذَ الكلامَ طويلاً بلا معنى على نحوٍ غَيرِ واضحٍ، ولم يُضفْ شيئاً، جعل البعضَ يضعُ رأسَهُ بينَ يديهِ، وكانت ثرثرتُهُ سمجةٌ ثقيلةٌ، ينبسِطُ وينقَبِضُ، وكأنَّهُ سيغيِّرُ الكَوْنَ والإنسانيةَ، فجأةً قاطعَهُ وجهٌ ضخمٌ بشاربٍ كثيفٍ شديدِ السَّوادِ وبنظارةٍ فوقَ الرأسِ، ناسِجاً ومطرِّزاً تدخُّلَهُ متصنِّعاً حالةً منَ الغَضَبِ وعدمِ الرِّضَى، وكأنَّه يضعُ أُصْبُعَهُ أخيراً على مكامنِ الخللِ، وكان على حق، ذلك أنَّ المرء عندما يفكر، يصبح كل شيء غاية في الوضوحِ والبساطةِ، ثم وكأنَّهُ يهمِسُ بكلماتٍ

عَلِقَتْ في حُنْجُرَتِهِ... ولم تَدَعْهُ يتكلَّم، ومرَّةً أخرىٰ يرجح ويفيضُ ثرثرةً فارغةً... وكأنَّه يمتلك العلمَ والمعرفةَ من ألفِها إلىٰ يائها... أو كأنَّه سَيُغَيِّرُ العالمَ هو الآخر...!

استمر اللقاء حتىٰ تجاوزَ الوقتَ المحدَّدَ بساعة وأكثر، واتَّسَعَتْ دائرةُ الخِلافِ وَالأسئلةِ التي تشابكتْ وبدونِ طائلٍ، وحتما ستعقُبُها لقاءات لامتناهية... بل حتىٰ التوصياتُ السَّابِقةُ لم تتحقَّق ولم تُفعَّل كعادَتها، وستُوكَلُ المهمات للجانٍ فرعيةٍ جديدةٍ، ستتمخَّضُ في المستقبلِ القريبِ والبعيدِ، وها نحنُ مِنَ المُنْتَظِرينَ، المصادَفاتُ نفسُها، ولعَلَّها هيَ نفسُها المفارَقاتُ أيضاً، وها كلُّ شيءٍ يسقطُ مجدَّداً في مَتاهَةٍ بلاَحدود، لاَمخرجَ منها، فلا نعرفُ مَن نُصدِّق ولا بِمَنْ نَثِق؟ وحقيقة ما نحن نجتمعُ عليهِ هنا...؟ بل وماذا نفعلُ أصلاً الآن؟ عَقَّبَ أحدُهم في هذا الوقتِ بالذَّات...

وسرعان ما وقفَ صاحِبُنا مغادراً، وكأنه يريدُ أن يَنْسَلَّ بهدوءٍ كالحكيمِ، كما لو أن خطابه الداخلي طافح بالسخط والحنق، أو كمن سلبوه كل ما يملك وبقيت له كرامته، أو كمن أَبْحَرَ وغَاصَ في أعماقِ الأعماقِ، وخاطره سائحٌ جائلٌ بالمعاني العظام، كمن حلَّ لُغْزاً أو امتلك كَنْزاً، وها هو يصفق في داخله علىٰ نفسه، وبابتسامةٍ عريضةٍ حزينةٍ، لم يُجيِّبنا، إلىٰ أن غادرَ نحوَ البابِ الخَشَبيِّ الضَّخْمِ للقاعةِ، والحارسانِ الأَمْنِيَّانِ يَنْظُرانِ إليه بازدراء، وهو ينظرُ إلىٰ الأرضِ، إلىٰ أن وصلَ إلىٰ الباب ثم استدارَ، ورُبما هَمْهَمَ وقال إلىٰ اللقاء، "فريد" الذي كان

جالساً إلى جواره، كأنَّهُ الشخصُ الوحيدُ الذي استمعَ إلى خطابِه السريِّ، الَّذي كان قد انتزعَ كلماتِهِ من فمهِ بطريقةٍ ما، فقد رأى بعض حركات يديه ترتعشُ في انفعالٍ لا إرادي أثناء اللقاء، وقد كان يريدُ الإمساكَ بيدهِ ليقول له: إجلس، فما زال الوقتُ مُبَكِّراً، رُوَيْدَكَ، ما هذا؟ إنَّكَ تبعَثُ في النَّفْسِ أشدَّ حالاتِ الغيْظِ والكُرْه والقَهْرِ، هذه هي المأساة المتربِّصَةُ بنا، وما علينا إلا أن نتسلَّحَ بالصَّبرِ والمجامَلةِ وشيءٍ من النِّفاقِ الاجتماعيِّ...!

أولئك الذين يرجفون بأنهم سوف يضمنون لأنفسهم النجاة إذا ما خرجوا اليوم ليعودوا غداً، هاهُم حتى في وقْتٍ متأَخِّرٍ، حين وقَفُوا، وبدأوا يُبْعِدُونَ الكراسي ويَنْهَضُونَ من وراء، صَوْبَ المدْخَلِ للخروجِ، لم يوقف أحَدُهُم التعليقات والإيماءات والتحايا والنِّفاق والمجاملات والسَّلام...!

في يومٍ آخرَ، وقبل أيِّ اجتماعٍ جديدٍ، بدَا عازماً من غيرِ صمتٍ أو سخط أو تدمر أو غمغمات، أو سخط، وبقلبٍ مضيء مليءٍ بالرِّضَى غير متخلِّفٍ عن موعِدِهِ، غير مبالٍ، يجرؤُ مثلما عصفورٍ على بناءِ عُشِّهِ، وبشكلٍ مختلفٍ من خلالِ مشروعٍ ذاتيٍّ، وسرعانَ ما غمرته صلابةٌ رُوحِيةٌ إيمانيةٌ قويةٌ، وبدونِ أن يتزَحْزَحَ عن قرارهِ، وبلا تمهُّلٍ في الحسمِ، وبلا تردُّدٍ أو تأخُّرٍ، يُقَدِّمُ رِجْلاً وبلاَ تَأخيرِ الأُخْرى، عازماً كلَّ العزمِ، ولم يتسَنَّى له، ليصدِّقَ نفسهُ حينَ انغلقَ بابُ المصعَدِ، فوجدَ

أمامَهُ المدير العام الذي بادرهُ برعونةٍ، وبلا رحْمَةٍ بقوله: لقد تأخرتَ كثيراً، بَيْدَ أنَّ خسارَتَكَ لا تثيرُ حُزْني، "فُهَمْتَكْ، الآن فُهَمْتَكْ..."

هو الآخرُ وَدُونَ أن يتمالكَ نفسَهُ، إذا بهِ يُقاطِعُهُ وبلا أيةِ كلمةٍ... يلَوِّحُ لَه الآنَ باستقالته..!

المسافة (18)

قناع ممثل...

أنا الرَّذاذُ! أنا الشَّبحُ! أنا الرِّيحُ، أنا القِناعُ! أَنَا لا أَحَدٌ...! فكيفَ يسقطُ الصُّبْحُ حزيناً مُنْكَسِراً؟ كيف يَنْضُجُ الحزْنُ المَغْبونُ في بكاءِ القَلْبِ؟! وكيفَ تُورِقُ الهمومُ في الضُّلوعِ والورق...؟ يقولُ الممَثِّلُ وهو يجرِي منَ اليمينِ إلى اليَسارِ على خشبةِ المسرَحِ، مسحتُ زجاجة نظارتي، لم أستَطِعْ أن أتبيَّنَ شيئاً، شيءٌ ما كان يتحرَّكُ في ذلك السَّوادِ أو هكذا بَدَا لي، ربما شبحٌ أو صَحْنٌ طائرٌ، والممثِّلُ لا زال يصيحُ: كيفَ يسقطُ الصُّبْحُ؟ كيفَ ينضجُ الحزْنُ؟ ويهرولُ بينَ جنباتِ الخشَبةِ... رفعتُ يديَّ أُشيرُ إليهِ، لكنَّه لم ينتَبِهْ، رفعتُ يديَّ مرةً أخرى وأنا أصيحُ لأَجْذبَ انتباهَهُ، وفي تلك اللحظةِ انفجرَ الممثِّلُ وغاصَتِ القاعةُ في القهقهةِ.. التَفَتُّ،.. لم يكنْ هناكَ أحد، فقد مضى وقتٌ طويلٌ ولم يحضر أحد، في وسط الخشبةِ صناديق وكراسي خشبية متعانقةٌ، وفي أقصى اليمين أعمدةٌ وإطارات أفقية تشبهُ السِّجْنَ، وأثوابٌ وأقمشةٌ مدلاة، وأقنعةٌ مختلفةُ الأحجامِ والملامح، والممثلُ لا زال يجري من اليمينِ إلى اليسار ويصيحُ، ثم سرعان ما اشتعلت ملابسهُ ناراً من

الأسفلِ رافعاً وَمُمَدِّداً يديهِ كأنَّهُ يحاولُ الطَّيرَان، يحرِّكُهُما عابثاً نحوَ الأعلىٰ وأجنحة الريش علىٰ طول اليدينِ والذِّراعيْنِ لاتصفق، ولا أحدَ هُنا غيري يصفِّقُ، والممثلُ المسْعُورُ وحدَهُ يَصيحُ، يقفُ ويسقُطُ، دائم الصِّراعِ بين الأحاسيس والنيران في ذيلِ دثارهِ لا زالت مشتعلة، لعلَّها إحدىٰ الخُدَعِ التمثيلية، فهو لم يحترِقْ ولم يمتْ لحدِّ الساعة وقد مضىٰ وقتٌ طويلٌ، أو هكذا توهَّمْتُ، يقفُ بصعوبةٍ يتمايَلُ ويترَنَّحُ يميناً وشمالاً، يوشِكُ أنْ يقَعَ علىٰ الركخِ، يقتربُ قليلاً منَ الوسَطِ، ينكشفُ الوَجْهُ الغضوبُ عن فجاءة الفرح المصنوعِ وراءَ القناعِ، ثم يردِّدُ: أنا الرَّذاذُ! أنا الشَّبَحُ! أنا الرِّيحُ، أنا القِناعُ! أَنَا لا أَحَد...!

وقبلَ أن تُرفَعَ السِّتارَةُ، انزَوَيْتُ في رُكْنٍ قَصِيٍّ، جِسْمِي يرفُضُ الاستمرارَ في الشُّرودِ، حتىٰ ظهَرَ الممَثِّلُ، لكن هذهِ المرة كان يضعُ رأسَهُ وسطَ مِشْنَقةٍ، وفي الأسفلِ بقايا رمادٍ، وبدَا المنْظَرُ برُمَّتِه متعدِّداً من خلالِ المرايا الَّتي عكَسَتْهُ والمبتوثةُ وراءَهُ، ثم صاحَ: أين هذا الزيف، أين يختبئ؟ أين هذه الأنا؟ وجسدُ من هذا؟ ومن هذه الرُّوحُ التي تسكُنهُ؟ أروحٌ خيِّرَةٌ أم شرِّيرة؟ اخرجُوا من أقنِعَتِكُم! ثم ما لبثَ أنِ انكفأَ علىٰ إحدىٰ المرايا محتضِناً خيالَهُ الَّذي ضَمَّهُ وانزلَقَ، وأنا ما زِلْتُ مُنزَوياً في رُكْني القَصِيِّ..، لم أرَ الممثِّلَ ولا نِصْفَه، السَّوادُ هو السواد، فلم أكن قد حملتُ معي نظَّارتي، وكأنَّني كنتُ أعرفُ مُسْبَقاً بأنني لن أرَ شيئاً مما قد يُبْهِجُني، الممثلُ لا زالَ ساقطاً، والأوراقُ تبعثَرَتْ في كلِّ جنباتِ القاعةِ، وتحتَ أَرْجُلِ الكَراسي الفارغَةِ، الفصلُ الأَوَّلُ الَّذِي لم

أَحْضُرُهُ تقريباً، والفصولُ الأخْرَىٰ الَّتي انْقَطَع فيها التيارُ الكهربائي وغابَتْ فيها الإنارةُ بكافَّةِ ألوانها وفُصولها، والظلامُ أيضاً اكتَسَحَ القاعة، والمشاهدُ والمسامِعُ انفلتَت وضاعَ النص بينَ الأَرْجُلِ، والممثِّلُ الوَحيدُ ما زالَ ساقطاً علىٰ الخشَبَةِ حتىٰ الآنَ!! الأوراقُ لا عَدَّ لها، لا بداية لها ولا نهاية، ولم تكن مرقَّمَةٌ أو متسلسلة، ثم هَا أَنَذَا أراكمها واضعاً بعضَها فوقَ بعض، فجأةً يقفُ الممثِّلُ ويَصيحُ: تحرَّكُوا إن هذا العالمَ الَّذي تتواجَدونَ فيهِ يتعذَّبُ في جُلِّ بِقاعِهِ، وإلاَّ فالأخطاءُ ستستمِرُّ حتىٰ فوقَ هذهِ الخشبة، ولا أحدَ سيحرِّكُ منكُم ساكناً! ولَنْ تتلَذَّذُوا بِعَذابي! ولَنْ أُسَلِّيكُمْ أو أقدِّم لكم أَيَّةَ فُرجَةٍ بعدَ اليوم! وسأصيرُ هَشيماً وتَذْرُوني الرِّياحُ، وسَتَخْرُجونَ إلىٰ مُعْتَرَكِ الحياةِ رغماً عنكُم لِتَرَوُا الحقيقَةَ وتَسْتَنْجِدُون! هيَّا تحرَّكُوا ألا تحُسُّون، فالموتُ واحدٌ والحرباءُ تنتَظِر!! ثم يصيحُ أنا الرَّذاذُ! أنا الشَّبَحُ! أنا الرِّيحُ، أَنَا لا أَحَد...! سَأَتَبَخَّرُ إِنْ لَمْ تَتَحَرَّكُو، أنا النَّارُ في الهشيمِ حتىٰ تَتَحرَّكُوا لوَقْفِ هذا النزيفِ، أنا الرَّذاذُ! أنا الشَّبَحُ! أنا الرِّيحُ، أنا القِناعُ، أنا الرِّيحُ الَّتي ستُغَيِّرُ قُبْحَ هَذَا العالمِ!!

المسافة (19)

أيقونات الغفلة...

–1–

صفوفٌ من الرِّجالِ يحملون أغطيتَهُم على ظهورِهِم مثل النُّعوشِ على طولِ المسافةِ، صاعدين المروج والتلال نحو الجبالِ حيث الدُّورُ والأبنيَةُ الشَّديدة البياضِ تبدُو كشُيوخٍ يحتَشِدونَ هُناكَ في وداعٍ أخيرٍ، وأبوابُ عَتيقةٌ زرقاء مُوَشَّحَةٌ بالقُرمودِ الأخضرِ والأحمرِ، وكانَ هُناكَ رجال آخرون يخرُجونَ من هذه الدُّورِ واحداً واحداً فلا يعودُون...، سوىٰ رجل تسمَّرَ في مكانهِ وقد أقامَ ظهرَهُ فلا تعرفه جالساً أم قائما! وجَثَا فوقَ صدورِ الرِّجال الآخرين المودِّعين صَمْتٌ ثقيلٌ ينذِرُ بميلادِ عاصفةٍ هَوْجاءَ... وقد سَحَبوا أطرافَهُمُ الآدَمِيةَ الَّتي ما زالت تزحَفُ، وطارُوا بأجنحتِهم المحروقَة منَ الشَّوْقِ وإنْ كَانوا كَمَنْ لايَنْوِي السَّفرَ أو الوُصُولَ....

–2–

السرُّ الَّذي لم يمتْ بموتِ صاحبِه، قالَ الرَّجُلُ العَجوزُ وهو يُغمْغِم ويَسْترسِلُ في كلامهِ عَنِ الرَّحيلِ والموْتِ، والَّذي لم أَفْهَمْ مِنهُ شيئاً سِوَىٰ كُلُّنا لها، ثم أردفَ: لقد كانَ جَبَلاً ونخْلَةً صامدةً أمامَ كلِّ الأَهْواءِ

والزَّوابع... ومرَّةً أُخرَىٰ بَدَتْ مِنَ القَوْمِ الغُرُباءِ هَمْهَماتِ الرِّضى والإِذْعانِ لكلامِ الشَّيخِ، والاسْتِحسانِ لفلْسَفَتِي الحياتية، حين عقَّبْتُ بقوْلِي: لله ما أعْطَىٰ، لله ما أَخَذْ...

وشردتُ في هذهِ الأثناء، لا أعرفُ ما أَصْنَعُ، وكيفَ أُواجِهُ عَمَّ والدِي؟ وكيفَ يمكِنُ أن تواجِهَ مثلَ هؤلاء الَّذينَ يتَحَدَّثون عنِ الموتِ، وهُمْ في غفلةٍ عمَّا يَنْتَظرُهُم؟ هؤلاءِ الَّذِين يصمُتونَ عَنِ الحقِّ ولا يَرْضَونَهُ، ولا هُمْ بهِ يَعدِلُونَ، أمَا كانَ لهم أَنْ يوقِفوا الظَّالِم عن غيِّهِ؟! أو ينبِّهوهُ على الأقل، وذلك بأن يُسَلِّمَ الإِرْثَ لأصحابهِ بذلَ المراوَغَةِ والزَّيْفِ! فالأرضُ الَّتي تصرَّفَ فيها، واستفادَ منها لسنواتٍ طويلةٍ ليست له، وعليه أن يرجع الحق إلى أصحابه، فالأمر عسيرٌ اليومَ وغداً...! ثم تدخَّلَ أحدهم بقوله: أنتَ من أسرةٍ عريقةٍ، أصيلٌ بن أصيلٍ، وأبُوكَ كان رَجُلاً جَبَلاً مَهيباً، وإذا به يُعيدُني من شرودي، ثم حَمْدَلَ وحَوْقَلَ، فردَّدتُ خيراً إن شَاءَ اللهُ...وأنا أَضْغَطُ بأصابعِ يدَيَّ على القَصَبةِ الَّتي تحتَوي عقْدَ المِلكيَةِ بِجَوْفِهَا... في هذا الوقت إنهمَكْتُ في ترتيبِ كلامٍ في رأسي يليقُ بالمقامِ، وبسؤالِهم عن أُصولِ أشجارِهِمْ قبلَ أن يُبادِرُوني، غير أنَّ أحدَهُم استوقَفني كمَنْ يحاوِلُ أن يُرَتِّبَ الأفكارَ من جديدٍ ليأخذَ برأسِ الخيْطِ، في انتظارِ الطَّعام الَّذي لم يحضُر بعدُ، وقد بادرني بسؤالٍ عن أصلِ الشَّجَرةِ، فابتَسَمْتُ وعَقَّبْتُ بِقَوْلِي تقصدُ الشَّجرَةَ الملعُونَةَ في القُرآن؟ ثم ضَحِكَ الجميع! فقال: أقصدُ أَصْلَكَ، مسقط رأسك؟

قلت: ألم تسمع لصاحبنا قبلَ قليلٍ وهو يتحدَّثُ عن أبي رحمه الله وكأَنَّهُ يعرِفُه، وإذا لم تنتبه، فأنا من كلِّ مَكانٍ قد يتبادَرُ إلى ذهنِكَ! فأبي

أمازيغي من الأحرارِ، وأمي من الشرفاء الركـراگـيين، وسَعْيِي في الحياةِ من مكانٍ لآخرَ كان منذُ النَّشأَةِ الأولىٰ، ثم هأنذا بحثٌ وتنقُّلٌ دائمٌ فوق هذهِ الأرضِ حتىٰ نصيرَ تَحْتَها، والنَّاسُ يا أخي معادن، طوبٌ وحجر، وكلُّنَا من آدم، وآدمُ من تُراب...

فجأة! سمعنا صوتَ صُراخٍ ونُواحٍ، فهَرْوَلَ شابٌّ إلىٰ الخارجِ، ثم رجَعَ وهو يحوْقِلُ ويقولُ: رضيعٌ وافَتْهُ المنيَةُ، والنِّسْوَةُ هُناكَ يبكينَهُ، فأَوْغَلْتُ في جُرْأَتي، لله ما أَعْطىٰ، لله ما أخَذ، وصرتُ أرَدِّدُها، نظراتهُم بعدَ ذلك أيْقَظَتْ شَجَني، وحرَّكَتْ في أَجنحَةً كثيرةً، قَفَزْتُ علىٰ إثرِها مغادراً المنطقةَ مثلَ الرِّيحِ وللأبدِ... كرحالةٍ لكن بدُونِ محطَّاتِ وُصول...

– 3 –

كلُّ شيءٍ مُعَدٌّ الآنَ تماماً علىٰ الرغم من عدَمِ الاستعدادِ لهذا الموتِ المفاجِئِ... كان القبرُ قد مهد بحيث يستطيعُ أن يستضيفَ النَّعْشَ الجديدَ، كما أن التراب قد فرش حولَ القبرِ، إلىٰ جانبِ الأحجارِ الكبيرةِ المتراكِمَةِ.. وتصلُ عربةُ ميِّتٍ وقد وقفت، يتبعُها لفيفٌ ضئيلٌ من النَّاسِ في ثيابهمُ البيضاءَ توقفتُ عند ابتداءِ الممَرِّ المغَطَّىٰ بالرِّمال، وعندما وضعَ الحمَّالونَ النَّعْشَ أمام فتحةِ القبرِ بَدَا أنَّ عُيونَ الحاضرينَ جميعاً مُصوبة نحوَ الحُفْرَةِ، وبالجانبِ رجلٌ عجوزٌ بقبَّعَتِهِ البيضاءَ تهبِطُ إلىٰ أنفِهِ، وجلبابُهُ الصُّوفيِّ الَّذي تعبثُ به الرِّيحُ، وبينَ وقتٍ وآخرَ كنتُ أرىٰ بفضولٍ عينَيْهِ اللاَّمعَتَيْنِ الضيقتين مصوَّبتَيْنِ إلىٰ قلبِ القبرِ...! أحسستُ بالعرَقِ يتصبَّبُ مِني، وبرعشةٍ باردةٍ وصلتْ إلىٰ أَحْشَائي، وبقيتُ مَشْدُوهاً في

مكاني، زائغَ النَّظَراتِ.. توشوشُ في صدري صُوَرُ البُسَطاءِ العابِرينَ في صمتٍ...، وقد مَرُّوا من هذه الحياةِ...، دون استعلاءٍ أو استكبارٍ، لكنَّهُم كانوا يحلمُون بحياةٍ جميلةٍ وبالمطرِ المِدْرارِ والوُرودِ... كان صوتُ المرَتِّلينَ قَدْ حاصَرَني، مَسَّتْ حَنيني الَّذي كانَ قَدْ هَمَدَ، والحُفْرَةُ رتبت أحجارها علىٰ بعضها البعض، ثم ها هُمْ يشيِّعُون الجُثَّةَ في صمتٍ، ويتفرقُون في صمتٍ وجلالٍ، وقد جادُوا عليهِ بدموعٍ حارَّةٍ... ولاذُوا بالانصرافِ أو الهروبِ والفرارِ، وبانوا دهراً مُحتَمينَ بالنِّسْيَانِ في انتظارِ موتٍ آخرَ...!

–4 –

رصاصِياً كان ذلك اليوم وشاحباً، والسماءُ مُسَيَّجَةٌ بالاغترابِ والرَّحيلِ، والأوراقُ تتَطايَرُ وتتناثرُ مثلَمَا الحَالُ في خريفٍ أو شتاءٍ قارس، من قال بأن الصَّيْفَ لن يصيرَ شتاء، لم يعرف بأن دوامَ الحالِ من المحال...!

فمن ثقب رَحِمِ الثَّرىٰ... ومِنْ داخلِ حُفْرَةِ القَبرِ، كان التُّرابُ يتدفَّقُ ذراتٍ صَوْبَ وَجْهِهِ.. وهو يُصدِرُ مِنْ أَعْماقِهِ أنيناً حاداً.. كانَ مُغْمىً عليهِ منذُ فترةٍ طويلةٍ، وها هو يستيقظُ من هَوْلِ صدمتهِ داخلَ القبرِ ليصعقَ بأُخْرَىٰ.. أحَسَّ بانْقِباضٍ ووَجَعٍ شَديدَيْنِ.. حاولَ أَنْ يُقاوِمَ، صاحَ... لم يسمَعْهُ أَحَد، حاول أن يتذكَّرَ، استوعبَ في تأمُّلٍ، رأىٰ أشياء لايراها الأحياءُ، خَلْفَ الثقب هُناك أسرارٌ خَفِيةٌ، حرَّكَ أطرافَ أصابعِ يدهِ.. مدَّها نحوَ الثُّقب.. استمَرَّ هبوبُ حبَّاتِ الرَّمْلِ والتُّرابِ والحصىٰ دُفْعَةً واحدةً، سد الثقب كمن لا يريدُ أن يعودَ للحياةِ مرَّةً أُخْرَىٰ.. توقَّفَ النَّبْضُ بعدَ بِضْعِ ساعاتٍ.. لا أَحَدَ انْتبَهَ إليهِ...!

–5 –

هاهُمُ الآنَ يتغَنَّوْنَ بسماحَةِ قلبِهِ، بشهامَتِهِ وأنفَتِه وسُمُوِّهِ وإنسانيتِهِ، كان طيباً وديعاً، كان سيِّدَ الرِّجالِ ويا مَا كَان...!

أُوَدِّعُهُ وأحتملُ فِراقهُ رَغْماً عَنِّي، ويمضي إلى حيثُ تستريحُ روحُه، وجههُ المشرِقُ كما لَوْ كانَ موتُه اختيارُه، وقلبهُ النَّابِضُ بالإشراقِ وحُبِّ الخيرِ والنَّاسِ لن يتوقَّفَ، وسينْبِضُ ويدُقُّ مع دقَّاتٍ كثيرةٍ إلى ما شاءَ اللهُ...!

–6 –

كم يموتُ الإنسانُ في هذه الحياة، يجيئُ ثم يموتُ مَرَّاتٍ عديدةٍ قبلَ الوداعِ الأخيرِ، كان أبي رحمَه الله يردِّدُ بأنَّ الموتىٰ الحقيقيينَ ليسُوا أولئكَ الَّذينَ واراهُمُ الثَّرىٰ بل الَّذينَ واراهُمُ النِّسيانُ، وأرىٰ الآنَ بأنَّ الدُّنْيَا لا تحتفِظُ إلا بأسماءِ من كانُوا هُمٌ كذلك، ينشرحُ قلبي إذا كُنْتَ أَنتَ، أَنتَ...!! أنتَ الزَّادُ ليومِ السَّفَرِ الموعودِ، رحالة بمحطَّةِ وُصولٍ محدَّدَةٍ سَلفاً...!

–7 –

أنا كنتُ أبَداً أمُرُّ عليهِ، أرىٰ عرقَهُ يغسِلُ وَجْهَهُ، وهو يرفعُ فأسَهُ ويَهْوِي بِهِ علىٰ الأرضِ، كنتُ أَرْمُقُهُ بفضولٍ غريبٍ، وأعجَبُ لهذهِ الحفر الَّتي ينحتُها محطاتٍ جاهزةٍ، اقتربتُ أكثرَ نحو الشباك الحديديِّ، كانت المقبرةُ موحشةً، حيثُ العناكبُ نسجَت حبائلها بين الأشجارِ، مزَّقْتُها بوجهي المتَجَوِّل في أرجاءِ المقبرة، أخَذَني فُضولي كالعادةِ لأَرْمُقَ حفَّارَها البائسَ، ولم أَرَ أحداً، لكني رأيتُ شيئاً غريباً، قبراً قد دُكَّ في رأسهِ مَقْبَضُ

فأسٍ، ووجهاً جديداً لحفَّارٍ جديدٍ كان يَهْوِي بفأسهِ على الأرضِ، وعَرَقاً غزيراً يغسلُ وجهَهُ...! كانَتْ يَداهُ المعروقتانِ ممتلئتينِ بالحياةِ السوداءِ الرَّطْبَةِ، وركبتاهُ مَغْروسَتانِ في الطِّينِ، يرتدي حذاءَهُ القديمَ الَّذي يصلُ حَدَّ الرُّكْبَةِ... رحالة لم يعزم بعد...!

– 8 –

الخطواتُ تتلوها الخطوات، وهو يمشي ثمَّةَ مكانٌ سوف يصلُ إليه، وبعده ثمة مكانٌ آخرَ، لم يحس بخطاه أبداً، لا يلتَفِتُ، كلُّ الأشياءِ من حولهِ تبدُو غائمةً، والشمسُ حارقةٌ، والسرابُ يكتَسِحُ الطريقَ الوَعْرَ الجافَّ، منذُ ساعاتٍ وهو يسيرُ، شرَدَ ذهنُهُ إلى بعيدٍ، إلى الماضي الَّذي تجسَّدَ أمامهُ في هذهِ اللَّحَظاتِ، فَرَاحَ يستعرضُ صُوَّرَهُ... كمَنْ يحاولُ عبثاً أن يُقَصِّرَ المسافَةَ، فلا الطريقُ قصُرَت، ولا الذِّكرَياتُ جادَت، تعب ولم يتعب الشُّرودُ، ووَهْمُ الوصولِ مُرْفَقٌ بألفِ احتمالٍ، فلقاءُ أُمِّهِ قد يكونُ الأخيرَ..

كم هو فظيعٌ ألَمُ الفراقِ... سنواتٌ سيئة، حين يعيش الإنسانُ على ألَمِ الفقدِ، وكعادتهِ يظلُّ يمشي تائهاً يستَبِدُّ بِهِ الشُّرُودُ من كفنٍ إلى كفن، يعصُرُه الصَّمْتُ سحاباتٍ وقلَّما باسماتٍ، تسقي أَدِيمَ الرَّحيل، يتجرَّعُهُ العَويلُ مسافاتٍ بين النَّعيمِ والجَحِيمِ، بين اليقظَةِ والحُلُمِ، والخُطوات تصيرُ أَمْيالاً!

تَعِبَ من كثرةِ المشْيِ، المسافةُ طويلةٌ، وحقيبةُ الأغراضِ الَّتي يحملُها على كتفهِ ثقيلةٌ، والطريقُ ما تزال طويلة، تحسَّسَ الصَّخْرةَ الملساءَ بالقربِ من الشَّجرَةِ الوارفَةِ الظِّلالِ فجلسَ، نَظَرَ بالقُربِ منهُ قافلةٌ من النَّملِ راح يُتابِعُها، ثم نظرَ بعيداً...

هُوَ الَّذي قد ترحلُ أمُّهُ هذا اليوم، يأخذهُ الشَّتاتُ والتِّيهُ إلى حيثُ لا يدري، يُسنِدُ ظهرَهُ إلى جذعِ الشَّجَرةِ ليستريحَ، يُمَدِّدُ جسَدهُ على الأرضِ العراءِ كمَنْ لا يَنْوِي الوُصُولَ.

– 9 –

كانَ ذلكَ آخِرَ يومٍ له بيننا هُنا، ورقةٌ أخرى تُطْوَى إلى الأبَد، لم يُسْعِدْهُ أحدٌ حتى الوداعَ الأخيرَ، حدَّ الرَّمق، رمق النهاية، لم يبقَ لي غير ذكراه الجميلة، صورتُه الوحيدَةُ على الجدار، لا أحدَ يشعرُ بكآبَتِها، عيناهُ تحدِّقانِ فِي، وكأنَّ رُوحَهُ تتلبسُ بي... ترتِّلُ أشواقَهَا في ثُقوبِ الشَّبابيك... وكأنَّ واحدنا يشبهُ الآخرَ، لم يكن يحبُّ الصُّعودَ إلى القِمَمِ أو الإبحارِ، لكنَّهُ كان يحِبُّ البحرَ ويسيرُ قريباً منهُ، وَيتبعُ الغُروبَ إلى أقصى نُقطَةٍ، لكن كل ما فَخِرَ بهِ فيما مضى صارَ مجرَّدَ تخاريف، وعبثاً حاولَ الخروجَ، عبثاً حاولَ تَضْميدَ الجراحِ، لكن الريَّاحَ تأتي على غيرِ اشتهاء...

لم يكن ينامُ كثيراً في آخر أيامِهِ، كان يتَّكِؤ بحذائهِ المثقوبَ وكان دوماً على أُهبَةِ الاستعدادِ، لأنَّهُ كان يحلمُ بالحبِّ والسَّفرِ البعيدِ...

– 10 –

الغائبونَ تحتَ التُّرابِ أكثرُ حضوراً منَّا، وقد مَضَواْ فوقَ أَجْنِحَةِ الرَّحيلِ، كشواهدَ القُبورِ كانَ غِيَّابهُم، أُوَدِّعُهُم رغماً عَنِّي، ويمضون إلى حيثُ تستريحُ أرواحُهُم..، وجوهُهمُ المُشرِقَةُ كما لَوْ كانَ موتهُم اختيارُهم، كانوا نجوماً في الظُّلْمَةِ، ترَكُوا السَّاحَة مَلآ بالحُضورِ الزائفِ وغابُوا بشيءٍ يُشْبِهُ الفَقْدَ...لكن ذكراهُم ستظَلُّ مَوْشُومةً مُشِعَّةً في القلبِ، فلقد عاشُوا

للخيرِ والحُبِّ والعطاءِ، وسيلهجُ ويَنْبُضُ القلبُ بذكرِهِم، قلوبهُمُ النابضة بالصِّدْقِ والإشْرَاقِ وحُبِّ النَّاسِ لن تتوقَّفَ، وستدقُّ دقاتٍ عديدةٍ إلى آخرِ العُمْرِ...! رحالة تركَ خلفَهُ أكبر الأثر!!

– 11 –

هذانِ دَربانِ، الأوَّلُ يأخُذُني للبحرِ، والثاني يأخذُني للمَقْبرَةِ... فأَرْنُو إلى القبورِ، أستنفرُ خُطايَ، أفكر في النهاية، أحتاطُ من المجهول، أُنْصِتُ لنداءِ الغيبِ، البحرُ زاخرٌ بصنوفِ الحياةِ، يمنحُ الكائنَ أسرارَ الدَّهْرِ المنسابةِ كالأمواجِ في مدِّها وجَزْرِها، أشرعة بيضاء تنشرُ امتداداً من الحياةِ الذَّاهِبَةِ الفانيةِ، والقبرُ مليئٌ بحياةٍ أبديةٍ حقيقيةٍ خاليةٍ من الزَّيْفِ، حياة طاهرة صامتة لكنها كاشفة، هُنا جواب واعظ يقينِيٌّ عن كل أسئلتي وحَيْرَتِي، وأرىٰ ما لا يُرىٰ، فهأنذَا أطوفُ ما أطوفُ، لكن حتماً سَتَسْرَحُ بي قدمايَ رغماً عَني حيثُ تريدُ...أعتمِرُ قُبَّعَتي ثم أُصَوِّبُ خُطايَ من نُقْطةٍ ما ثم تنطلقُ الخطواتُ...، تتساقطُ اتِّباعاً في مَهَبِّ ما لا يُدْرَكُ، والقلبُ يَنْخَلِعُ من مكانهِ، يتهَلَّلُ للوداعِ، قد تهدينا الخُطُواتُ إلى ما قد وُجِدَ بهما، قد أركضُ وأَجْتَرُّ حرَّ الآهِ...! ثم أنبِشُ عن مُسْتَقَرٍّ يمسحُ ما في القلبِ من كَمَدٍ، مستقر أُسائِلُ فيه عن حرفِ البَدْءِ وحرفِ الختمِ، فأطلبُ مدداً...، غير أنَّ خُطوةً واحدةً خاطئةً قد ترميني في الهُوَّةِ السَّحيقَةِ، لكن حَسْبِي الاحْتِمَاءُ بالحذرِ إن نفَعْ، أُقَدِّمُ رِجْلاً وأؤَخِّرُ أُخْرَىٰ، كمَنْ لايَنْوِي الوُصُول...

– 12 –

بيتي كان يقبعُ وسطَ الدَّارِ الكبيرةِ، والدارُ الكبيرةُ تقعُ قُرْبَ السَّاحةِ الملقَّبَةِ بساحةِ الشُّهداءِ...، والسَّاحةُ تمتَدُّ قُربَ الغابةِ الوارفَةِ الظِّلالِ تمتَدُّ مسافةً يسيرةً منَ البحرِ...، والبحرُ يقبَعُ هناكَ وبينهُ وبينَ الدارِ الكبيرةِ مقبرَتُنا، هُنا يرقُدُ الآباءُ والأجدادُ... هُنا مُستَرَوَحُ العائلةِ، محطَّتُنا الأخِيرَة.

– 13 –

القبورُ تنتقلُ.. والسَّماءُ تنزلُ بالمطرِ، وحفيفُ الأشجارِ يمتَدُّ ينتشِرُ، وعُشٌّ دافئ بين الأغصانِ، وقش يتحطَّمُ ويندَثِرُ، وأنا لستُ هناكَ سوىٰ قبر مضيء بين ظلام المقبرة وبين القبور المتنقلةِ الخائفةِ.. لم هم خائفون؟ لم يكن بين الغابةِ والبحرِ إلا بضع خُطوات، والمقبرةُ بينهُما تلقي النُّورَ المشِعَّ وهي تتسلَّقُ الظِّلالَ المَمدَدَةِ للأشجارِ الوارفةِ السَّامِقةِ، والَّتي لم تعُد تحلمُ بالبحرِ...

اللَّونُ الأبيضُ المشِعُّ علىٰ امتدادِ الأفُقِ، يكسر اللونين الأخضر والأزرق، ثم يتوارىٰ ويقبعُ خلفَ ستائر الخشوعِ إجلالاً لمن رحَلُوا، الجميع ينامُ رغماً عنهُ هنا الآنَ...! وأنا المجنَّحُ الوحيدُ بين هذه الحشودِ النَّائمةِ، أشعرُ كأني بقيتُ مُنزوياً منعزلاً وحدي هنا، وكأنه لم يعد لي شيءٌ سوىٰ أن أشربَ الحياةَ في جوفِ البحرِ... وأتنفس الهواء العليل في مكنونِ الغابةِ، وأتدثر بأوراقِها وأتسربل بأزهارها وأستنشق عبير أريجها، وأتنقلُ في رَحِمِ طُهرِها وصَفائِها، وأحتمي كقبرٍ مضيءٍ بنقاءِ وصفاءِ نقائها....

أرنُو إلى المقبرةِ فأرىٰ علىٰ شواهد القبورِ أسماءَ مَنْ مَرُّوا، أستنفرُ خطايَ مِنْ مكانٍ لآخرَ، أرىٰ الغابةَ والبحرَ تمتلئ الحياةُ في عيني مزيجاً من الثَّراءِ، في عِبارةٍ أو شَذْرةٍ من شذراتِ الولَهِ "هذه خلوةٌ من خبرَ الحياةَ وعبرَ في صمتٍ".

البحرُ زاخرٌ بأَشْرِعَةِ الحياةِ والأسرارِ، والغابةُ حين تنحني كأنها تنبئ بسرِّ الوُجودِ لتمتَدَّ في الأعالي شامخةً بعد هدوءِ العواصفِ والأنواءِ، ضاربة في أعماقِ الأرضِ والحياةِ بالظِّلالِ والعَطاءِ... أجلسُ القُرْفُصاءَ أمام المقبرةِ... أُدْرِكُ بأنَّ هُنا سِرُّ الأسرارِ.. تَنْبُتُ أحزاني فجأةً، أسحبُ أطرافَ الأفكارِ المبتورةِ الموزَّعَةِ علىٰ كافَّةِ الأرجاءِ بينَ البحرِ والغابةِ... تلك انطلاقةٌ أُخْرَىٰ لتضربَ بأجنحتِكَ الوقتَ الآسر...

وكأَنَّني أجتازُ قفراً من الغرَابةِ والعُزلةِ الآنَ...! أدُورُ في متاهاتِ تفكيرٍ تائهٍ، أغْفُو وأَسْبَحُ متأمِّلاً، أرىٰ ما لا يُرىٰ، يعتريني طيفٌ مِنَ الرُّؤَىٰ والوجوهِ والصورِ، مثقلة بالآيات والعِبَر، فعلىٰ لِحىٰ أشجارِ الغابةِ نُحِتَتْ أسماءٌ وقلوبٌ...، وعلىٰ شواهدِ القبورِ رُصِّعَتْ أسماءٌ وأسماءٌ لمنْ عَبَرَ في هذهِ الحياةِ، وآياتٌ وعِبَرٌ شتَّىٰ أُخَر..، أرنُو إلى المقبرةِ فأرىٰ الشَّاهدَ شاهِدَ صاحبِ الخلوةِ، فأتلبَّس بحرفِ البدءِ والختمِ مَرَّةً أُخْرَىٰ" هُنا يرقدُ.. من كانَ يحبُّ الحياةَ!!" فأشتعِلُ بالوَلَهِ!! تَضْطَرِبُ حالتي، تختَفي مَعَالِمُ طَرِيقِي، وأَجْزَعُ من الخاتمةِ! أُفتَنُ كمن يرتعِشُ في يدهِ مفتاحُ بابٍ وهو في عَجَلةٍ من أمرهِ لموعدِه معَ سفرٍ عاجلٍ لَمْ يُرَتِّب لَهُ وَلم يكن في الحُسْبَان، رَحَّالَةٌ بلا محطَّاتِ وُصُول.... هو الَّذي كانَ يحلُمُ بالحُبِّ والسَّفَرِ البعيدِ، لكن هذهِ المرة تتَثاقَلُ الخُطُواتُ كمَنْ لايَنْوِي الوُصُولَ....

المسافة (20)

أخيراً وَحْدَك...

كالحلزونِ، عهدناهُ مَرِحاً، خفيفَ الرُّوحِ والظِّل، في الجِدِّ كما الهزلِ، كُنا نَدْعوهُ "بابا سيدي" نجتمعُ إليهِ كلَّما عُدْنَا منَ المدرسَةِ، يرشِدُنا ويقَدِّمُ لنا نصائحَهُ الغاليةَ، وكان يحكي لنا حكاياتهِ الَّتي لا تنتهي عن حرب "لاندوشين"، وفوق كل ذلك، لا يبخل عنا بالحلوىٰ والنقود، كنا ننْشَرِحُ حينما نراهُ، وكان يبدُو سعيداً أَيضاً، كلَّما اجتمعنا حولهُ، وكأَنَّنا أولادهُ وأسرَتهُ! وما ترسَّب في ذاكرتي المثقوبة، أَنَّهُ كان أول من كون فريق حيِّنا "للا أميرة" لكرة القدم، بهذَا الحيِّ كان يَنزوِي أشبهَ ما يكونُ بنفايةٍ مرميةٍ هُنا، وقد اتخذَ من دُكَّانٍ ضيِّقٍ بيتاً وَمَسْكَناً لَهُ.

بطولِ ثلاثِ حيطان صورٌ من ورقِ الإعلاناتِ لمثلات "هوليود"، بابُهُ الخشَبيُّ صارَ مَرْتَعاً للسُّوسِ، وعلىٰ دَفَّةٍ من دفَتيّ إحدَاهَا المتآكِلَةِ بطُفيلياتِ الخشَبِ، عُلِّقَتْ مرآةٌ مُكَسَّرَةٌ تَبْعَثُ عن جُرحٍ قديم عميقٍ، كأخدودٍ انكساريٍّ لأحلامَ وَرْدِيةٍ ضاعت في أعقابِ أَعْوَادِ الثِّقاب، صاحبها يعيشُ أحلامَ "الدونكشوت"، وتحتَها مِقلاةٌ لطَهيِ سمكِهِ الملَوَّثِ بِنفْطٍ بعيدٍ، وشبكَةِ صَيْدٍ حمراءَ ذاتِ عُيونٍ كبيرةٍ،

لم تَعُدْ تنفَعُ أمامَ شُبالَّكٍ مثلَ الغِربالِ، وفي أعلى الدَّفَّةِ المثبتَةِ، عُلِّقَ قفصٌ لعُصفورهِ الحزينِ، وبالدَّاخلِ عتبةٌ من الأرضِ مرفوعة، فوقها حصيرةُ مجدهِ الغابرِ، صفراءَ بالية، ممدة عليها زربية من القُماشِ المطليِّ بالرُّقعِ الزاهيةِ، المزَرْكشَةِ بكُلِّ ألوانِ الفُصولِ، تُنبِؤُ بتاريخٍ مَنسيِ الموعدِ والفرحَةِ، وفي الجانبِ الآخرَ مائدةٌ من خشبِ العرعارِ، عليها إبريقُ شاي، وصحن، وفنجان خزفي يشهدُ بعبقرية إبداع "العملي" مكسورٍ، يضعُ فيهِ سجائرَهُ عادةً، وعلى الأرضِ كُرسِيٌّ وحقيبةٌ باليةٌ، فوقَها مجلات وجرائد من كلِّ صوتٍ وصدَى، وعُلَبُ للتِّبغِ، وبعض النقود ومذياع، بين هذا المتاعِ كان يبدو لنا سعيداً، وكان أهلُ الحيِّ يستجيبون له في كرمٍ، وكأنهم يقرأونَ وحدتَه، وكلما أحَسَّ بالجوعِ، كانت في انتظارهِ أطباقٌ حافلةٌ من الطعام، كان يُقبِلُ عليها بكُلِّ شهيةٍ ونهمٍ، ثم يقفُ مُتَخَشِّعاً مبهوراً متنهداً، وهو يتطَلَّعُ إلى عصفورهِ الوحيد، جاذباً أنفاساً عميقةً من سيجارتهِ الَّتي أوقَدها، وفي يدهِ اليُسرى، كوبُ شايٍ، وضبابُ السِّيجارةِ والكوبِ يرتفعُ إلى أعلى، إلى أعلى، إلى أعلى...!

خمسة عشر سنة...، فباستثناء الأتربةِ الَّتي صارت مطلية بكدرون "الزفت" و"الشيخة الحاجة فاطنة" التي اشترتِ المنزلَ، الَّذي يضُمُّ دكان "بابا سيدي" و"مقدم الحيِّ" العتيقِ، الذي غير حجرهُ الأساسَ، غير هذا كلُّ شيء قابعٌ في مكانه، لا شيء تغيَّرَ، أصبح الآنَ قبُالةَ هذا البائسِ من شهادةِ السكنى، والميلاد، وشرف المقاومة،

وصباح ككل الصباحات المشدودةِ بالملل، والتي لا تندرُ بميلادِ شيءٍ جديدٍ لدىٰ "بابا سيدي"، الَّذي تقوَّسَ ظهرهُ، يحملُ غسيلَهُ لينشرهُ بالخارج أمام دفتي بابهِ المشمَّسَةِ بخُيوطٍ عموديةٍ، وكأنها تنسجُ خُيوطَ زمنٍ انفلتَ من قبضةِ يدَيْهِ، ومذياعهُ يعاوِدُ ترتيلةٍ صباحيةٍ قديمةٍ "عش أنت"، يعاودُها هوَ بتنهيدةٍ منَ الأعماقِ، وهذه "الشيخة" منحنية إلىٰ الأرض، تسيحُ الماءَ في كُلِّ مكانٍ، كانت عظيمة الخلقة، مكتظة الأعضاء، ورائحتها المنبعثة عن بعد، جذبت "المقدم" الذي يرغي ويزبد معها في الحديثِ، وسِهامُ نظراتهِ تحلِّلُ، وتفصل تفصيلا، وتمتد إلىٰ الأعماق، وقد وجد في هذا الجهد الآثم لذة، تفسرها حركات فمه، دفع "بابا سيدي" البابَ، وكان له صريرٌ كئيبٌ، وهو يرَدِّدُ حَنْحَنَةً، وآخ... ويطيلُها، كما أنَّ آثارَ الجراحِ في عُمْقِهِ يبدو أنها لم تندَمِلْ بَعْدُ، من هؤلاء الَّذينَ يسقُطون ويفُوزُون!؟ أشعلَ "بابا سيدي" عودَ الثِّقابِ، وعلىٰ ضوئهِ اهتدىٰ إلىٰ الدَّاخلِ، كان يريدُ أن يتكئ، لكن أشياءَ كثيرةً كانت تحدثُ من حولهِ، أحَسَّ برَجْفَةٍ تهزُّهُ، الوحدةُ، المَلَلُ، التَّعَبُ، والإرهاقُ، والأيامُ المتشَابهةُ!؟ صمتٌ وسكونٌ، ماضيهِ كلُّهُ شَعَر بِهِ؛ فجأةً، أحَسَّ بالإشفاقِ علىٰ نفسهِ، أحسَّ بأنَّهُ مِسكينٌ، وأنَّ حياتَهُ ليسَ لها معنىٰ، وبلا قيمَة، فلماذَا يعيشُ؟! بل وكيفَ عاشَ الفترةَ الماضيةَ كلها، لو كان لهُ بيتٌ، وأُسرَةٌ ككلِّ النَّاسِ، لو كانَ استقَرَّ، كان يحِبُّ أن يعيشَ في سلامٍ، حُرًّا طليقاً، والآنَ، بل اللَّحْظةَ شعَرَ أنَّ حريتَهُ قتلَتهُ، أحَسَّ بأنَّهُ ميِّتٌ، ألقىٰ بجسَدِهِ، لا يهمُّهُ شيء الآنَ، سِوَىٰ أن

يَرتاحَ، أَحْشَاءُ الفِراشِ تخرجُ منها أسرابٌ منَ النَّملِ، والحشَرات، أحسَّ بها تتسَلَّلُ إلى ملابسِهِ، ثم إلى جسَدهِ، هَبَّ واقفاً، الضَّيْقُ يكادُ يخنقُهُ، غيرُ قادرٍ، والموتُ يتسللُ إليهِ في خُفوتٍ، أحسَّ بحَجْمِهِ يتَضَاءلُ، ويَنْكَمِشُ وقد ألم على ذاتهِ...!

ليبقَى ذلكَ الإنسان، الَّذِي لم يوُلَدْ لذلكَ الشيء، والَّذِي تَغنى بأغنيةِ "الخلود"، في قَفصِ العُصْفُورِ، مُتَلَبِّساً بِرُوحٍ لا تُشْبِهُهُ، وليكونَ لقمةً لحفرةٍ جائعةٍ، والزَّمَنُ زَمَنٌ حَلَزُوني....

➢ **كَمْ هي مَليئةٌ بالعبرِ والأَسْرارِ والآياتِ هذهِ المسافَةُ بينَ العينِ والقَلْب، فَسُبحانَ المُبدعِ الخَلاق...**

✧✧✧

إن المسافات الإبداعية التي يرسمها الكـاتب **محمـد آيـت علو** في نصوصه المنفلتة. تفتح أمام المتلقي بابا، بل زوايا وعوالم إبداعية تقحمه بشكل منفلت في مواجهة قلق إبداعي وجودي وإنساني ومواجهة هذا التكوين الجمالي لمؤلف "كأن لا أحد"... حيث إن عليه أن يقطع هـذه المسافات اللغوية قصد الإمساك بخيط تلك النصوص ولن يتأتي له ذلك إلا بفك الرموز المـكتوبة، وكشف الدلالات العميقة في سواد الكتابة والدلالات المغيبة في بياضها. لأنها مسافات نصية، يتداخل فيه الشعري والصوفي... ويمتـزج فيها الخيالي بالواقعي، وتتعرىٰ فيها الذات من عقدها وكبريائها لتفصح عن صراعاتها ومشاعرها وانفعالاتها....

إنهـا مسافات ملـغومة حقا بتشكيلها، وسحر وشاعرية لغتها، وجدتها وفرادتها واحترافيتها، شرعيتها وواقعيتها وخيالها وصوفيتها...

المدني بوخريس

صدر للمؤلف

- **بـاب لقلـب الـريح**، (نصـوص منفلتـة ومسـافات)، ط 1، 2000.
- **عزلة والثلج أسود**، (ديوان شعري).
- **عيون على سفر**، (شعر).
- **باب لقلب الريح**، (نصوص منفلتة)، ط 2،2011.
- **منح باردة**، (قصص)، سيرة ارتقاء إلى مدارج الطرق الصوفية والظلال الروحية الموحية.